الصخرة الأسيرة

(وحكاية أشباح دار البارود)

صادق فاروق

الصخرة الأسيرة

(وحكاية أشباح دار البارود)

رواية

فهرنهايت 451
للنشر والترجمة

صادق فاروق
الصخرة الأسيرة (وحكاية أشباح دار البارود)
ردمك: 978-9931-288-81-7
الايداع القانوني: جويلية 2023

الناشر: فهرنهايت 451 للنشر والتوزيع
إيميل: edition.fahrenheit451@gmail.com
العنوان: وسط مدينة الجلفة.

جميع الحقوق محفوظة ©
لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.
تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

إهداء

«إلَى الّتي لَمْ تُشّجعني يومًا عَلَى الكتَابَة

وَلَمْ تُؤمن بحبريَّة أنَاملي

إلَى المَرأَة العَظيمَة أُمّي...

وَإلى أُستَاذيَ العَزيز المُبتسمْ دائمًا

بُوسنَّة أحْمد

الفَصْل الأوَّل

عند باب المغارة كان يُتمتم مسرعا:

«أربعة أطفالٍ ضاع منهم كلبهم روبرت، انتبه مارسيل أنّ روبرت قد سقط داخل الكهفٍ، حينها سارعوا بإحضار الحبل والمصباح، ففوجؤوا بثيرانٍ وأحصنةٍ طائرةٍ، وبعد خوفٍ وهلعٍ فُتحت أعينهم من جديد على جدران تحمل رسوماتٍ كثيرة».

هو يتقنُ رواية هذه الحكاية، فلقد صارت كاسمه منذ أوت 1950. ومذ ذلك الزمن وهو واقف على بوّابة كهف «لاسكوا»، وكأنّ حجارتها الخرافيّة تحمل رسمًا له بين أرجل تلك الحيوانات المتوحّشة خصوصًا ذلك البيزون (البقرُ الوحشيُّ) فلطالما أغضبته عيونه المُتّجهة نحوه.

وكأنّه يُخاطبه هامسا:

«أنت تسلب منّي شموخي وشهرتي». للحظاتٍ عابرةٍ تفاجأ واندهش، وكأنّه للوهلة الأولى يشاهد هذه الثّيران الكبيرة والغزلان الحمراء والأبقار، والحيوان الخرافيّ ليكورن «وحيد القرن».

كانتْ آثار الإرهاق بادية على ملامحه، لاسيّما وهذه الحشود الكبيرة الّتي لا تكاد تنقطع منذ افتتاحه، والحقّ أنّ هذا الواجب الثّقيل المُلقى على عاتقه وأصدقائه لا يقوى عليه أحد، فالكهف يزوره المئات يوميًّا دون انقطاع، وعلى الأقلّ سيكون عليه سرد تلك التّفاصيل عن الرّسوم والنّقوش الموجودة في الدّاخل لأكثر من خمسين زائرٍ، وقد يتعيّن عليه المكوث أمام كلّ صورةٍ لأكثر من ساعةٍ كاملةٍ إزاء تلك الأسئلةِ الّتي لا تنتهي.

قد يكون منها مثلًا:

«لماذا وُضعت هذه الثّيران الكبيرة في بناء مستدير مُقبّب؟»، «ما اسم هذا الحيوان (يقصدون حيوانًا مبهمَ الملامح يدعى «ليكورن»)؟»، وقد يتفنّنون في طرح تلك الأسئلة الفلسفيّة وقتًا طويلًا متسائلين عن «خريطة سماء اللّيل»، تُظهر الخريطة ثوراً وإنسانًا يُشبه الطّائر وطائرًا آخر فوق عصًا وتُعرَفُ هذه النّجوم مجتمعة بمثلّث الصّيف.

وهي تتميّز بلمعانها الشّديد الّذي ينعكس على عينيّ جون عندما يتسمّر أمامها مُلقيًا بصره في سقف الكهف، وكأنّه يُناجي الفضاء الخارجيّ، فيصمتُ وقتًا طويلًا مُمثّلًا على الجمع الملتّف حوله، وقد تنصّلتْ روحه من جسده فلم يبق منه إلاّ لسانه هامسا:

«ما أقبح منظركم أيّها الأغبياء، وأنتم لا تتحرّكون كحجارة ملعونة». ربّما كان فزعه كافيًا في ليلة مضتْ حتّى لا يسخرَ منها، ولا يُقطّبَ في وجوه الزّائرين، فلقد انطفأت المصابيح الكهربائيّة وهو وسط المغارة، فاضطربَ بصورةٍ غير مألوفةٍ وراح يُشتّتُ نظره في الظُّلمة الدامسة الّتي لا تنتهي، وبدا له أنّه من غير المعقول أن

يَحدث ذلك، فمنذ افتتاح الكهوف بعد الحرب العالميّة الثّانية لم تنطفئ الأضواء أبدا.

آنذاك أخرجَ مصباحه اليدويّ، وراح يتفحّص المكان بخطواتٍ مُتراخيةٍ، غير أنّه لملمَ بعضه وتماسكَ حينما سمع صوتا خفيّا مُنبعثًا من قاعة الثّيران الكبيرة وبالرغم من ضّوء البطّاريّة الصّغيرة الخافت، إلّا أنّ الضّوء كان يزداد انتشارًا كُلّما اقترب من القاعة، ليُفاجأ في الأخير برسوم الأسقف تسطع ألوانا دافئة وصوتا لذيذا صادرا من قطيع الثّيران ومنظرا للجِياد الّتي كانتْ تمرحُ بجانب الأيائل ذات القرون.

فرّ حينها مصعوقًا من المشهد، وصار يُقسم لأصدقائه أنّها حيواناتٌ شيطانيّةٌ مملوءةٌ بالسّحر والتّنجيم، ويستطرد قائلًا: «كان واضحًا جدًّا أنّها كذلك وإلّا كيف تُفسّرون بقاءها ملتصقةً محتضنةً هذه الجدران منذ آلاف السّنين، وزِد على ذلك سحرها ولمعانها اللّذيْن لم يزولا».

وكأنَّ جون قد اكتشف مسوّغًا جديدًا للحياة حينما صُعق بحركة تلك الرّسومات وضوئها الدّافئ، كان ينبغي أن يُفسّر هذه الصّور غير المتناسقة تمامًا، لكنّه لا يجدُ سوى دقائق قليلةً ليُجادل صديقه مالروا في ذلك.

الحقّ أنّ مالروا كان يحفظ أسماء الصّور الثّلاثمائة كاملة، ويُتقنُ تأويلها والتّفلسف فيها دون معرفة، إذْ أنَّ العمل في المغارة يجعلُكَ مهذارًا وشاعرًا حتّى تستطيع زرع البسمة على ثغور أولئك المُتعطّشين

للنّقوش والآثار القديمة، كان جون يُحاول جاهدًا تصديق الهراء الّذي يقوله صديقه، وتكرارَه في صمتٍ حتّى يحفظَ من ثرثرته شيئًا يُجيب به عن بعض الأسئلة الكثيرة الّتي تُظهر عجزه خصوصًا أمام أسئلة الأطفال السّاخرة، ومن بين تأويلات مالروا الغريبة أنَّ الرّسومات الّتي كانتْ بلون أسود فقدتْ روحها منذ قرونٍ حينما غضبَ عليها المسيح وحرمَهَا من الألوان والسّحر الأبدي.

أمّا الرسومات الحمراء فهي كائنات حيّة حتّى الآن، وأنّها تُحلّقُ ليلة واحدة في العام في أسقف المغارة، فقد باركها المسيحُ وخبّأ سرّه فيها، ولعلّه اكتشفَ ذلك مُذْ رَوى له جون ما رآه في تلك اللّيلة، وطوال الوقت كان مالروا يتفنّنُ في التّأويل وجون يُقهقه ساخرًا من القصص الّتي يختلقُها من رأسه.

يقع كهف لاسكوا في فرنسا قرب دور دون (مونتنياك)، على ضفّة نهر فريزا اليسرى، وهو من أشهر كهوف ما قبل التّاريخ، أكسبتْ هذه الأعمال الفنّيّة منطقة لاسكوا جرتو لقب «مصلى سيستين»، كان الازدحام منذ اللّحظة الأولى عليه آنذاك، فاُختير جون من بين القلائل كي يكون عاملا في المغارة مع أجرٍ مرتفعٍ جدًّا فأصبح بذلك أسعد زملائه وأوفرهم حظا، ومنذ وُلوجه اللّحظة الأولى راح يتحسَّنُ ويُشفى من تلك الأزمة النّفسيّة الّتي أصابتْه منذ سنين.

لعلَّ ذلك سببُه وفاة والده وأمّه الّتي لا يعرفُ عنها شيئا سوى حكايات تكاد تقتربُ من الخيال، حكتْ له عمّته «لولا» عنها قائلة:

«اُغتيلتْ في المقاطعة الفرنسيّة بالجزائر، فلقد ازداد عدد المجرمين في ذلك الزمن، وكان سببه الدّعم الّذي تلقّوه من هتلر، فتفشّى القتل

بصورة خياليّة وجرتْ أنهار الدماء بسبب الخارجين عن القانون، والمسكينة أمّك حُوصرتْ رفقة عائلتنا ولم تستطع النّجاة».

لم يكن جون يعرفها ولم يسألْ عنها يوما، كان وكأنّه اقتمص حياة وحش بريّ ألقَتْه أمّه في غابة مُكتظّة بالأشجار الكثيفة، فلم يكُن بوسعه فعل شيء، سوى أن يستمرّ في صمته ووحدته، حتى يجد منفذا أو سبيلا إلى النّور.

وقد انعكس ذلك في تأويلاته للنّقوش الموجودة في المغارة، كان يقول عن صورة (ثور جريح يسحق رجلا):

«الثّور هو الغضب والقوّة الوحيدة الّتي تُحكم لجام الإنسان المُتجبّر، وقد يكون علينا أن نُواجه البشر ونحن مُرتدين هذه الأقنعة الثّائرة كي نستطيع العيش».

سرعان ما ينطق مالروا نافيا ذلك كلّه:

«هو ثور جريحٌ، فالجرح أعمقُ من الغضب وأمتنُ من القوّة، قد يكون الظّلم صفة إنسانيّةً عند البعض لكنّه فطرة عند الحيوان».

ولقد ارتبط الكهف بالصّندوق الّذي كان يخبّئه جون منذ زمنٍ بعيدٍ، يشبّهه بنقوش المغارة، ذلك أنّه كان مغلّفًا بجلدٍ إفريقيٍّ على الأرجح، كان يبدو مع تلك الخطوط الرّقيقة والمرسومة بدقّة على أنّه عتيقٌ جدّا، فلقد كان لافتًا للنّظر وهو مُلقىً في فوضى عارمة من حزم الأوراق وآلة راقنةٍ وتماثيل لحيوانات إفريقيّة، أعطته إيّاها عمّته «لولا» وقالت أنّها إرثٌ لجدّه الضابط ميشال، علاوة على ذلك فقد وجد في هذه الخردة رائحة زكيّةً وقُوتًا روحيًّا، مثلما يكون المرء في جنّة مرتفعة جدّا عن الأعين.

يُمرّر يده بلهفة على سطح الصّندوق دون أن يتجرّأ على فتحه، والحقّ أنّه حاول قبل ذلك مرّات عديدة ولم يستطع إدارة المفتاح، فقد لاحظ وجود مادّة حمراء في القفل وتغيّر لونِه البنيّ، كما أنّه لم يكن راغبا إلى حدّ كبير في فتحه، فلم يكن يحتوي إلّا على أوراق باليةٍ كما أخبرته عمّته «لولا».

كان جون غير مكترث بإرث جدّه بقدر ما هو مستغرق بمقارنته بالتغيّر الّذي طرأ في المغارة منذ أسبوع، وهو تغيّر ألوان النّقوش والرّسومات بشكل رهيب وانتشار طبقةٍ بيضاء على الأسطح، وقد أصرّ مدير المغارة أندري على إغلاقه في تلك الأيّام، ودعا كلّ العاملين هناك وقام باستشارتهم في المرض الذي جدَّ فجأة.

وطوال الجلسة كان يُوبّخهم على تهاونهم في الصّيانة، وسماحهم للزّائرين بلمس الجُدران والعبث بها، ومن الواضح أنّ النّقاش احتدم هناك وتصادمَ، خاصّة وأنّ أندري أصرّ على إلقاء التُّهم عليهم قائلا:

– أنتم مُتهاونون ولا تدرون قيمة هذا الإرث، لا أُريد حمقى غير مُبالين في المغارة.

كان يقول ذلك وعيناه تتفحّصان وجوه الحاضرين بتذمّرٍ وغضب، سرعان ما نطق جون مُحاولًا إعطاء تفسير لمّا حدث.

– المغارة يزورها المئات يوميًّا، وأرى أنّ هذا الحشد جعل مستوى الإضاءة يتغيّر، والهواء لا يتجدّد باستمرار.

آنذاك كان أندري يُشتّتُ نظره بينهم، وكأنّه ينتظرُ إجاباتٍ مُقنعة أكثر.

– أرى أنّ الطّحالب والفطريات هي السّبب في هذا المرض.

هكذا قال مالروا.

شرد أندري طويلا محدّقا في سقف الغرفة، وكأنّه اكتشف شيئًا غريبًا، واستمرّ على هذه الحالة وقتًا طويلًا، لم يكترثْ قطّ لِما كانوا يقولونَه، وتحوّل إلى قطعة ثلجٍ جامدة، بعدها غادر المجلس دون أن ينبس بكلمة واحدة.

جرتْ الأمورُ على هذا النّحو والكلُّ مستغربٌ من تصرّف أندري، أما جون فكان مُتخوّفا من إغلاق المغارة للأبد، ذلك أنّه المكان الوحيد الذي لا يذكّره بآلامه وعقده الماضية التي لم تُفارقه، فقد كان يقضي جُلّ وقته هناك متجوّلا في أروقته كطفل بائس تُطارده الغُربة العاتمة، وتحضنه من الخلف مُحاولة أن تقتله مُجدّدا لكنّه يتحرّر مهرولا في غرف المغارة، ويستلقي هناك مُغمضا عينيه مُتناسيا كلّ شيء.

وفي تلك اللّحظة كان مالروا يُقهقهُ بصوتٍ عال، وعيناه منتفختان من شدّة ذلك ويهمسُ متكلّمًا عن أندري بلغة ساخرة.

– ألم أقل لكم أنّه كاتب، وهذا الصّنف من الرّجال يعيش عوالم كثيرة، وما شُرُودُه ذلك إلا أنّ فكرةً جديدةً سطعتْ في داخله، فغادرَ مُسرعا كي يُدوّنها، فأنتُم تعرفونَ جميعا أنّ شيطانا مجنونًا يتنزّلُ على معشر الكتّاب.

بدا مدير المغارة حاقدًا على جون منذ اللّحظة الأولى، فقد كان مُتذمّرا كلّما رآه يُمازح الأطفال غارقا معهم في تفاصيل طويلة عن النّقوش والحكايات الأسطوريّة التي كان يَقصُّها عليهم، وخاصة

عندما التقاه صُدفة في مكتب الحزب الشّيوعي الذي كان يُدمن جون الذّهاب إليه.

ساعتَها رآه مُتبجّحًا على الأريكة، يُرسل لفافات السجائر واحدة تلو الأخرى ولا يتكلّم أبدا، وفي الوقت الّذي كانَ الكلّ يتحدّثُ بصخب حدّ العراك، كان يُرسل ابتسامات لا تنمُّ عن شيء وكأنّه لا يأبهُ بما يقولون، فخَمَّن أنّه قد يكون من الحزب الشيوعي المُتطرّف الذي يدعمُ القضيّة الجزائرية ويسعى لخلق مفهوم جديد لانفصال مُقاطعة الجزائر عن فرنسا.

كان من الواضح أنّ ذلك المكان الموجود في آخر الممرّ خلف البار، قد أدمنه جون وتبنّى أفكاره. مكتب الحزب الشيوعي الذي كان يضمّ كثيرا من الكتّاب والشعراء والصحفيين، فقد أسّسه ليون صديق جون في الجامعة سابقا وجمع كلّ أصدقائه المثقّفين في المدينة، وقال حين افتتاحه أوّل مرّة:

«إنّ التّطرّف اتّسع بقدر لا يُصّدق، فلقد انتشر فكر انفصالي يدعو إلى تفكيك دولتنا فرنسا، وأنتم تعلمون جميعا ما سيؤول إليه هذا الفكر المُنحرف إن لم نكن له بالمرصاد، ولقد اُعتمدَ هذا المكتب في مُحافظتنا دوردوني من قبل هيئات عُليا في الحزب، وتعلمون كلّكم أنّ ما يقوم به المُجرمون هناك في مقاطعتنا بالجزائر، ما هو إلّا امتداد للأحقاد الطّامعة الذي يتبنّاه المتطرّفون».

بدتْ المواضيع المُتناولَة تنحرفُ عمَّا كانت عليه، وتَراجع بعض الأعضاء في كلامهم، فقد حاول أحد الحضور تذكيرهم بمرجعيّة الحزب قائلا:

– قديما أُسّس هذا الحزب على مرجعيّة واضحة تستند على مبادئ الثّورة والتحرّر من الاستعمار، وحريّة الشعوب في تقرير المصير.

وواصَلَ كلامه مُستغربًا عن تناقض الحزب في تصريحاته.

– فقد أشار الأمين العام للحزب موريس تورز أمام النّواب الفرنسيين إلى أحقيّة الشّعب الجزائريّ في نيل الاستقلال حين قال «من حقّ الشعب الجزائري الحريّة والاستقلال، والتخلّص من قبضة الاستعمار»، ولكنه حينما وصَلَ إلى الحكم عام 1936 تراجَعَ عن موقفه حينما صرّح في زيارته للجزائر قائلا: «من مصلحة الجزائر أن تبقَى مُرتبطة بفرنسا».

ثمّ أردف مُتسائلا بسخرية:

– ما هذا التناقض؟

وآنذاك ردّ ليون بعنف على السّائل:

– منذ عهد قديم والحزب ينتهجُ سياسةً واضحةً، تقومُ على ضرورة محافظة فرنسا على إمبراطوريّتها الاستعماريّة، وكلُّ البرامج البيداغوجيّة في المدارس تدلّ على ذلك، زد على ذلك لماذا أتيتَ إلى هذا المكان لطالما أنتَ مُعارض لمبادئ الحزب؟

قام الرّجل السّائل غاضبا، وكان فارع الطّول ذو كتفين عريضين، وبدأ بإلقاء التّهم والشتائم على الحضور، وهكذا تعالى الصّخب وعمّتْ الفوضى في المكان، وارتمى الرجل الضّخم على ليون يلكمُه، أمّا أندري وكأنّ الأمر لا يعنيه بتاتًا فقد ظلَّ صامتا يبتسمُ بخبث، وبعدَما هدأ الجميع أضاف مُتسائلا وكأنّه أَرَادَ إشعال فتيل الفتنة مُجدّدا.

– لماذا أدان الحزب الشيوعيّ خروج الجزائريّين في مظاهرات 8 ماي 1945؟ كذلك قد نَشرت صحيفة «لومانتي» النّاطقة باسم الحزب الشيوعي «من المُهم جدّا أنّ الأدوات الإجراميّة للاستيطان هو حزب الشّعب الجزائري وقيادتُه. هؤلاء الّذين لم يُحرّكوا ساكنًا أثناء التّواجد النّازي، أمّا اليوم فيُطالبون بالاستقلال، والمطلوب هو مُعاقبة منظّمي هذه الاضطرابات».

من الواضح أنّ المدير أندري كان خبيثًا في طرحه هذا، لأنّه علم بتواجد دخلاء الحزب الشيوعيّ المتطرّف في القاعة، فقد تسلّلوا تلك اللّيلة ليُثيروا انقسامًا وسط الحزب، وهذا ما حدث فعلا.

وبدأ الكذبُ والتّلفيق من فئة على حساب أخرى، ولم يدر جون ما ستؤولُ إليه تصرفات هؤلاء الدُّخلاء، وظنَّ أنّ الأمر كسابقته من اللّيالي التي كانت تحتدم وتشتعل، وسرعان ما يهدأ المكان وينتشر السّكون على صدى كلمات صديقه ليون، لكنّ الأمر بدا مختلفًا هذه المرّة، فبمجرّد تطوّر ذلك النقاش المحتدم حتّى وقف أعضاء الحزب في صفّ أولئك الدخلاء، فوقف الجميع مبهورًا وهمسوا فيما بينهم بالخديعة، وأشاروا إلى الجواسيس الّذين صُدموا بهم.

أمّا أندري فقد كان يقول ساخرًا «ليلة واحدة كانت كافية حتّى انقسمتْ أفكاركم، وإنّي مُتيقّنٌ إلى حدٍّ بعيد أنّ هؤلاء لم يكونوا جواسيس كما ادّعى بعضُكُم، وإنَّما أفكاركُم مُتناقضة ومقزّزة، فهيّا أيّتها الفئران الخائفة اخرجوا من مخابئكم وواجهوا النّاس بما تُريدون، وأنا أُخبركم منذ هذه اللّحظة أنّكم منبوذون، وتلهثون خلف مصالحكم فقط».

بيد أنّ جون تأثّرَ قليلا من عجز أعضاء الحزب عن الصدّ والوقوف في وجه أولئك المُتطرّفين الّذين يدعمون انفصال مقاطعة الجزائر عن فرنسا، قلّب الأفكار في رأسه كثيرا، واسترجع ملامح مديره الواثقة والسّاخرة، وتأكّد ساعتَها سبب تذمّره منه كلّما صادَفَه في طريق المغارة، عرفَ أنّه كان مع فكرة الانفصاليّين الّذين يَدْعُون إلى الحريّة.

شعرَ حينها أنّ عليه فتح ذلك الصّندوق، والاطّلاع على ما يحتويه من أوراق فطوال الوقت كان هدوء أندري يُخيفه ويبعثُ فيه شعورًا غريبًا، خاصّة عندما يتجوّل في المغارة مبتسما، ومتسمّرا أمام تلك النّقوش المبهمة، وها قد علم متأخّرا أنّه من الحزب الشيوعيّ المتطرّف، فقد باتَ عليه اكتشاف قضيّة هذا الرّجل بنفسه.

وهكذا كسرَ قُفل الصّندوق الذي كان قد أصابه الصدأ بعدما جُنّ لرؤية مُحتواه وأخرج تلك الأوراق النّخرة، فوجَدَ معها كتابًا مُغلّفًا بجلد، وما إنْ فَتَحَه حتّى عَرفَ أنَّها مُذكّرات ويوميّات جدّه التي كان يَكتُبُها حينما كان في مدينة تدعى جلفا[1]، وعمَّ المنزل صمتٌ مهول وارتعشتْ فريصته، وراح يعطس بسبب ذلك الغبار المنتشر من المذكّرات وهو يُقلّبها بتلهّف، كان يقرأ قليلا من الصفحة، وربعها ونصفها ويقفزُ كالمجنون للأخرى وهكذا دواليك، وجد فيها أسماء جديدة وقصصا لم يَخبرها قبلًا، ووجد تفاصيل كثيرة وأماكن لم يسمع بها من قبل.

كانت فاتحة المُذكّرات تقول:

1- مدينة جلفا: هي عاصمة ولاية الجلفة، وتبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 300 كلم، وهي منطقة سهبية شبه صحراوية تجمع بين التل والصحراء.

الصفحة 01:

«أنا الضابط الفرنسي ميشال أكتب من هذا المحجر القديم الواقع في الجهة الشّمالية لمدينة جلفا، أريد أن أدوّن من هذه اللّحظة التي سأبدأ فيها العمل هنا وسأكتبُ عن هؤلاء البربر الذين لم أفهمهم منذ ولوجي هذه المدينة، لقد وجدتُ في هذا المكان عددًا كبيرًا من الخيول والأبقار والأراضي الشّاسعة غير المستصلحة.

قدمتُ هنا رفقة مئات الجنود لتعمير هذا القفر البعيد، لم تكن هناك أبنية كثيرة ولا بريق كالّذي عهدته في مدننا الكبرى، لكنّ هؤلاء الأهالي أقرب إلى الأحجية والأسطورة، لم أستطع أن أعرف كيف يفكّرون، وكيف يعيشون وكيف يختفون في تلك الصحاري الشّاسعة، ويعودون بعد زمن طويل وقد زادتْ أرزاقهم وخيراتهم.

أتأمل أطفالهم وهم يلبسون تلك العباءات والعمائم البيضاء، وكيف يبدون أكبر بكثير من سنّهم، لقد كلّفوني بهذا المحجر الجبليّ بعدما وشى بي كانتوكا الملعون وأنا في غرفة التّجارة في مدينة الجزائر.

لن أنسى تلك الهياكل السوداء والمداخن الحمراء الآسرة، كان الضجيج وصراخ التجّار هناك يملأ حياتي، ويجعلها مختلفة عمّا أنا عليه الآن.

كنتُ أعرف أنّه يحقد عليّ مذ بدأتْ اليزا تُشاركني المكتب وتتودّد إليّ، كانتْ تلبسُ تنّورة قصيرة، ذات ساقين ممشوقتين جميلتين، ووجهٍ مستدير وشعرٍ أشقر مُتطاير، وكان كانتوكا مُغرمًا بها ربّما، ولكنّها كانتْ ترفضُه بشدّة لأنّه كان بشعًا وذا صوتٍ خشنٍ وتُفضّلُني عليه.

ومُنذ اللّحظة الأولى من قُدومها وهو يسبّني ويشتمُني بسبب أو دون سبب، مع أنّي صارحتُه وقلتُ له بعدما أغضبني وهو يتدلّل كالصّبيان «اغرُب عنّي أنتَ واليزا واذهبا إلى الجحيم..»، لكنّها كانتْ مُتمسّكة ومُعجبة بي على الأرجح، فظلّ يُلاحقني طوال الوقت وجنّ جنونه عندما رفَضتْه أمام كلّ العمّال هناك، وقد دبّر لي مكيدةً حينما أخذ مفتاح المخزن في غفلة منّي، سرق حينها كمّية كبيرة من السّلع، وأعاد المفتاح صباحًا إلى الدُّرج، وهكذا كانتْ نهايتي على يد كانتوكا الملعون، بعدها أرسلوني إلى مدينة جلفا وقد أخبروني أنّهم سامحوني وعَفَوْا عنّي.

وعند وُلوجي الأوّل صُدمتُ بأرض قاحلة وصمتٍ مهولٍ يجتاح المدينة، فيحيل أصحاب العمائم هائمين كالدّواب، أبحثُ عنهم فلا أجدهم وأزورُ سوقهم الصّغيرة فلا تبدو أنّها مكان للباعة والمُشترين، لقد زجّوا بي في هذا المكان السّاخن الجاف وهم يستمتعون بعيدًا هناك. حينها أخذتُ قطعة أرضٍ لي، وعملتُ فيها لزمن طويلٍ حتّى اخضرّت واشتريتُ أبقارا وأغناما، وبدأتُ أتأقلم مع هؤلاء البدو الملاعين.

كانوا يرمقونني بنظرات عدائيّة حاقدة، ولا يكلّمونني أبدًا رغم مُحاولتي في محادثتهم، كنت أعتقدُ دائما أنّهم لا يفقهون اللّغة الفرنسيّة لذا يتجاهلونني، وكان عليّ التأقلم أكثر في هذا المكان لأنّي سأمكثُ فيه زمنًا طويلًا، وقد يتعيّن عليّ معرفتهم أكثر كي لا يُصيبني الملل والقرف».

ومذ تلك اللّيلة بدأت الكوابيس تقضّ مضجع جون وتُطارده، وأصبح كأبلهٍ يقتفي أثر النّاس والفوضى، كي لا تتجلّى له العتمة وذلك الصّدى الّذي راح يتوغّل في داخله، بدا له الصّوت مألوفا والكلمات قريبة من الكتاب ذي الغلاف الخشن واسترجع صورة الغبار المبثوث هنا وهناك، ماذا يفعل؟ وبما يفسّر هذا الّذي حدث له؟، تضاءلت الأسئلة في داخله وكادتْ تخنقه، ولم يستطع صبرا على هذه الخُرافة التي ظهرتْ بغتة، ألذلك الغبار الذي تسلّل من مذكّرات جدّي دَخْل في هذا؟... أهو النّاموس المُنادي في داخلي تحرّر من ذلك الصندوق؟... «لربّما هي شياطين المدينة البعيدة -جلفا- اختبأتْ مذ سديم السنوات الطويلة».

قال ذلك هامسًا مُضمرًا أكثر من أيّ سماء ممتلئة بالظّلام، وفي كلّ مرّة كان يُفتّش خزانته ويقفز كالمجنون للغرف المُجاورة، ويُحملقُ وقتًا طويلًا من النّافذة وكأنّه يبحث عن الطارئ الجديد الّذي لا يعرف كُنهه، لم يعِ أبدا هذا السّرّ الذي تجلّى كإرثٍ أسطوريٍّ مكنون، لم يكن بالبائن ولا بالمحسوس الخفيّ.

فقد كان كدوائر للعتمة الّتي تتّسعُ وتزيدُ اتّساعا كي تلتهمَ كلّ شيء أمامها، وكلّما فكّرَ مليًّا يهمّ بإحراق تلك المذكّرات والصّندوق معًا، حتّى لا يُعاوده الصّوت المبحوح ويُكلّمه ذلك النّاموس الأسطوريّ دون حجاب، سرعان ما ينتبه للغبار الذي اختفى للأبد وتسلّل عُنوةً لروحه فينسى كلّ شيء، ويحاول إدمان ما بدأه علّه يجد من سحر الأحجية عطرًا تمنّاه، وإرثًا ضَيَّعَه منذ وقت طويل.

وَدَّ العودة ولو لدقائق للمغارة الّتي مازالتْ مُوصدةً كي يُمرّر أصابعه على الجدران، ويُعيد تلك الخطوط الحمراء والسوداء كما بدأها أوّل مرّة، كان قد بدأها خَاليّا من الحيل والكذب حتّى طال به الأمد، وراح يُلفّق عنها القصص والأحجيات.

لم ينسَ أبدًا مقولةَ صديقه التّي حفظها وراح يُردّدها زُورا «الّرسومات التي كانتْ بلون أسود فقدتْ روحها منذ قرون حينما غضب عنها المسيح وحرمها من الألوان والسّحر الأبديّ، أمّا الحمراء فهي كائنات حيّة حتّى الآن وأنّها تحلّق ليلة في العام في أسقف المغارة، فقد باركها المسيح وخبّأ سرّه فيها».

وبدأ يذرفُ الدّموع كالطّفل الصغير، ويُناجي المسيح أن يغفرَ له حماقاته وتهاونه في عمله: «أيّها المسيح أغفر زلّتي وسامحني على ذنوبي، فقد أثخنتُ في الثّرثرة عنك بغير علم وتجاوزتُ حدودي. ادّعيتُ جاهلا أنّي أفهم حكمتك وأسرارك، وإنّي بادّعائي هذا لَشيطانٌ مريد، افعل بي ما شئتَ ولكن لا تُبعدني عنك، فقد أحاطتني العتمة واتّسعتْ حولي الدّوائر، فمنْ يُنجيني من شرّ نفسي ومن يُطهّر روحي من الدَّنس. أيّها المسيح أنا لم أعرف أبدا تلك النّقوش والحجارة، وإنّما قلتُ هذا كي أُفرحَ أولئك الأطفال، وأجليَ عنهم الغموض الّذي لمحتُه في أعينهم».

لم يعرف ما الّذي انتَابَه لحظتَها، وكأنّ وحشة الأيّام الماضية من عمره استفحلتْ مرضًا واستحالتْ غُبارًا جارفًا، ورأى من معين الحكايات همًّا وألما، وانزوى كطفلٍ مُتسوّلٍ ينتظر عفو المسيح عنه،

ثم أعاد قراءة البداية من جديد علّه يفقه هذا الشّيء الّذي انتشر بغتةً، لكنّه عاد رِفقة خيبته منكسرًا، وناداه ذلك الصّوت المبحوح من اللّامكان كي يَسِمَهُ بالجنون، ويُخبره بحكايةٍ قديمة جدّا.

تأكّد حينها أنّ عليه قراءة كلّ شيء والمشي لاهثًا خلف اللّحظات الّتي لم يَعشها، وبعدما كاد أن يرمي الصّندوق بما فيه في النّار، ضمّه وأعاد ترتيب نفسه بعدما تيّقن أنّ اللّعنة قد أصابته وانتهى الأمر، ولم يعد من المُجدي إحراق أوراقٍ نخرة وراح يتلذّذ بالحكايات المرويّة عن أولئك البربر وعن مدينة جلفا، وقرّر أن يحفظ إرث جدّه كما ألفه أوّل مرّة.

الصفحة 21:

«كان هناك أربعون رجلًا بربريًّا من فصيلة الرّؤوس الخشنة، أسمّيهم هكذا دائمًا فهناك الكثير من الفصائل الّتي قابلتها، ولم أجد أشدّ من هؤلاء القوم صلابة وصبرًا، كلّهم هكذا صامتون ومعاندون ولا يفقهون اللّباقة أبدا.

ولا شكّ أنّهم شِرذِمةٌ قليلون فقط ولا يمثّلون عامّة النّاس، فمنذ متى وسكّان مدينة جلفا يتكلّمون عن الحرب والسلام وهذه الأفكار الدّخيلة، وقد قرأتُ السجّل الذي أُرسل إليَّ وتبيّن لي أنّ أكثرهم خارجون عن القانون، ومنتسبون لأولئك الأشباح.

هذه الأحجية الّتي مازالتْ تلوكها الألسن، ويُعاودها الجند كلّما جّد أمر أو قُتل أحد، يقولون أنّ أشباحًا يرتدون عمائم بيضاء وزيًّا بدويًّا خالصًا، يطاردون جنودنا ويقتلونهم، وروى لي بعض الجند

قصّة تكاد تقترب للخيال، قال أنّه كان في إحدى اللّيالي يمشي ليلًا في أطراف المدينة حتّى اعترضه رجال ملثّمون وحاصروه، ثمّ قاموا بوضع الأغلال في يديه دون أن ينبسوا بأي كلمة.

وقعدوا يحملقون فيه زمنا طويلا، وأقسم أنّهم أشباح وليسوا بشرًا لأنّهم حلّقوا مبتعدين عنّه فأُغمي عليه. وفي الصباح استيقظ وقد وجد ضوء النّهار قد ملأ كلّ جسده، فحمد المسيح لأنّه لم يُصب بأيّ مكروه، وهكذا أصبح هؤلاء الجند الملاعين يُثقلون في الشّرب ويختلقون الأساطير.

وقد عاينتُ أولئك الحمقى المكتوبة أسماءهم في السجّل، ولم أرَ أيّ شيءٍ مقلق كلّهم رعاة وبدو لا يصلحون لأن يكونوا أشباحا وقتلة، كان في السجّل رجل يُدعى «ثامر» كُتب عنه أنّه من أتباع ذلك الرجل الثوري الأمير عبد القادر وقد نُفي إلى هنا، بدا لي غريبًا من اللّحظة الأولى وعنيدًا على الأرجح، فقد كان لا يلتفتُ لأحد ولا يشخص ببصره للسماء، يصبُّ جام غضبه على الصّخور. يرفع الفأس ويهوي بها على الحجر حتّى يكسّره كلّه، ولم يكن يرفض لي أمرًا أبدًا وكأنّه كان يخشى من إهانته علنًا كما أفعل مع الآخرين.

وكان في السجّل أيضًا رجل يُدعى حاشي وقد أُلقي القبض عليه ليلة البارحة كان فارع الطّول ذا منكبين عريضين ونظراتٍ ثاقبة، وقد كُتب عنه أنّه حاول تخريب أسلاك الهاتف، وحينما سُئل عن سبب ذلك ادّعى أنّه اعتقد أنّها لا تصلح ولم يقصد أيّ شيء ممّا فعله. وكان من بين المعتقلين رجل زنجيّ كنتُ أحبّه كثيرًا، ربّما لأنّه كان يتكلّم الفرنسيّة بطلاقة، ولا يرمقني بنظراتٍ عدائيّة كما يفعل معي أولئك الحمقى.

أخبرني أنّه فرّ من المسغبة الّتي أصابتهم في تلك القرى الإفريقيّة، وقد وجد في جلفا مستقرًا له قادما من الجنوب مشيًا على الأقدام، وكاد أن يهلك لولا أن أنقذه الجند وقدموا به إلى هذا المحجر كي يستطيع أن يوفّر لنفسه رغيف الخبز، وازداد إعجابي به حينما تعارك مع أحد أولئك الأشباح الملاعين وأبرحه ضربًا، فقد كان قويًّا مفتول العضلات والكلّ يهابه.

لهذا ازدادت ثقتي به واحتّل مرتبةً في قلبي، فأعفيتُه من العمل الشاّق ونصّبتُه حارسًا شخصيًّا لي، فكان ينقلُ لي تصرّفاتهم وكلّ تحركاتهم، والآن وقد تأخّرنا في تسليم الشّحنات للتّسريع في عمليّة البناء، باتَ علينا أن نُضاعف جهدنا ونعمل ساعاتٍ إضافيّةٍ، فلقد أخبروني أنّ المرقد صغير الحجم ولا يسع الجنود، لاسيّما وأنّه سيكون هناك الكثير من الزّائرين هذه الأيّام لتعمير المدينة».

في تلك اللّيلة اتّجه جون إلى حانة صغيرة في «لاسكوجرتو» بلباسه المعهود معطف أسود أنيق ووشاح قديم يُرافقه أينما ذهب، فهو يعتبره قطعته الأثريّة التي يعتزّ بها لاسيّما وأنّها تعود إلى جدّه الضّابط ميشال، رائحته العسكريّة تفوح بكثير من القسوة والعناد، كان يمور وكأنّ عذابًا غليظًا حلّ به، أضاقَ صدره الكثير من الذّكريات المُحزنة. حينها بدأ بركل الأرض برجله مُرسلا السيجارة تلو الأخرى إلى أصبعيه.

ذلك الصندوق جعله يلتقي بهاجسه الزّمني ويواجه ماضيه للحظات كثيرة، وبّخ نفسه مرّات عديدة وجالس عقليّته المُتزمّتة جلساتٍ كثيرةٍ قائلا في نفسه: «لا جرم أنّها هي... هي جلفا من ترسل لي شيطانها الأخرس يوما بعد يومٍ لتدميري وإظهاري بهذه

الحالة الهمجيّة البربريّة، كيف أحرّر نفسي من هذه الكوابيس المُتعفّنة، أم أنّ غبارها استكان في داخلي وجرى كشيطانٍ رَجيم».

بزوغ النّاموس وسطوته جعل من جون رجلًا عسكريّا عند خروجه من المغارة مُتّجها إلى الحانة كي يحتسي كؤوسا من النّبيذ، جلس إلى طاولةٍ منعزلًا عن الآخرين مُتصنّعا كثيرا من الكبرياء. اضطرب ورمى بنفسه قاب قوسين أو أدنى عن الطاولة، فقد خُيّل إليه أنّ صخورًا أبابيل تهاطلتْ عليه من الأعلى. أسرع بالهرب واختبأ بعيدا عن الحانة دون أن يسمع للنّاموس وضحكه الهستيريّ.

هو الجنون الأبدي الّذي يُواصل زيارته بانتظام، ودون انقطاعٍ ظلّتْ عيناه تراقبان بحذرٍ شديدٍ ملامحه المختفية، وسكن كلّ الكونً حتّى بلغتْ روحه مبلغًا عظيمًا، لم يعرف بعد كُنهه ولا مصدره لكنّه تيّقن أنّه النّاموس الّذي لا يموت أبدا، وأغمض عينيه وهمس بصوتٍ ظنّ أنّ مصدره السّماء.

لم يعدْ يُميّز بين ما يُصدره من صوت واختلاطُ حسيسِ النّاموس بروحه، ولم يبقَ له إلاّ النّوم علّه يستطيع أن يُنسيه سطوته الجامحة.

وطوال الوقت كان يسأل المسيح أن يفيض على روحه السكينة، وأن يُشفيه من هذه اللّعنة الأبديّة، علاوة على ذلك فقد فكّر مليًّا في العلاج النفسي، فقد رآه أقرب للواقع منه للأسطورة، ولأنّ ذلك كان أمرًا لابدّ منه فقد أدمن العيادات، وراح يُطلق العنان لرجليه جيئة وذهابًا، لكنّه لم يُغيّر من واقع النّاموس شيئا، بل تحدّثَ في أعماق نفسه عن قدرته على ترويضه ولو قليلا، وراح يتناسى ما كان منه ويَعدُ

نفسه بمستقبلٍ أجمل لا تشوبُه الأصواتُ المتقطّعة، ولا تكدّر صفوه تخاريف زمنٍ غابر، وحدث مرّة وأن سأله المُعالج قائلا:

– ما الّذي أصابك؟

وعلى مضض تنهّد وكأنّه ينكر سؤالًا لم يعرفه قبل ذلك، وهمس بصوت كاد يسمعه المُعالج:

«ما بالك أيّها العجوز الخرف، تسألني عن الّذي حلّ بي وقد ركنتُ هاربًا منه إليك».

وسارت الأمور على نحوٍ طريفٍ، فقد قرّبه للمرآة، وطلب منه أن يرى روحه فيها ويُكرّر أحاديث نفسه دون انقطاع، «كي تجابه النّاموس وتجبره على أن ينطق وحينها ستبتدئ المرحلة الثّانية من العلاج» قالها مُسرعًا، وقد أطلق أزيز باب مغلوقٍ، رحل وتركه متسمّرًا كأبلهٍ معتوهٍ ينتظر تجلّيَ النّاموس علانيّة، فيُواجهَه نزالًا عادلاً.

واستغرق ذلك منه أكثر ممّا يُطيقه الصّبر، ولم يأت كلاهما، لا النّاموس تجلّى ولا المُعالج عاد، فلمعتْ سذاجته بريقًا خافتًا وجرَّ أذيال الخيبةِ عائدًا لمنزله، ولم يعدْ بوسعه إلاّ القراءة أكثر فأكثر. وحدَها المُذكّرات هي من تُغيّب سطوة ذلك المُحتال وتُجبره على الصّمت ولو لزمنٍ ضئيل.

ومرّ الزّمن كبُقيعةِ سراب لم تكن في الحسبان، وعاد جون للمغارة أخيرًا متلهّفًا ووقب مدخله خاشعًا كأنما أرجأ كلّ ما حدث له رحيله عنها، واقتفى أثر خطواته وهو جَزِعٌ لما أصابه، فبدا كأخرقٍ يتخطّفه الموج من مكان سحيق، لا المكان أصبح يضّمه ولا النّقوش ابتسمت

كأوّل مرّة، حلّت عليه دائرة السّوء ومرّ خامدًا على الجدران المضيئة كرجلٍ غريب.

ولم يلتفت لها ولم يقل شيئًا، بل ظلّ عابسًا وكأنّ وقرًا أصابه مصطنعا حركةً مفعمةً بالنّشاط، لكنّه باء بالفشل بعدما ناداه الصّوت العميق لامزًا له بأنّ الغبار مستطيرٌ لا محالة، وأنّ العذاب الّذي حلّ به واصبٌ لم ينقطع، وسارت الأمور على نحوٍ مختلفٍ عمّا كان عليه في الماضي.

وتخافت مع صديقه مالرو بعدما نفد سيلٌ جارفٌ من الوساوس، وحجبه ضجيجُ الزّائرين. رَكَنَا قرب المدخل واصطنَعَا جدّية في السّعي والعمل، وحَدَثَ وأن أخبره جون باخعًا نفسه قائلا:

– طوال الوقت وأنا أشعر أنّ المسيح لن يُسامحني عمّا افتريتُه، وعن أقاويلي الّتي قُلتُها شططا.

– لم أفهم ما عنيتَه وعن مناسبة هذا الحديث؟

– لطالما فسّرنا تلك النّقوش والجدران البرتقاليّة بالكذب والزّور، وأنا لا أخفيك بأنّي نادمٌ أشدّ النّدم، وقد أصابني شيءٌ غريب صار يُلاحقني أينما ذهبت.

ابتسم مالروا بخبث وظنّه مازحًا ثمّ قال:

– لكنّني أختلقُ قصص النّقوش أكثر منك، وأحفظها منذ زمن بعيد، ولم يحدث لي شيء ممّا حكيتَ، بل على العكس، أجعلُ الزّائرين مبتسمين وأشجّع الطّارئين الجدد على العودة مجدّدا.

تفقّدَ الرّسومات كلّها وأعاد ترتيب أسمائها، علّه يجد من منطق الأحجية ملاذا مريحًا. كانت الثّيران البرتقاليّة تناديه والبيزون «بقر وحشيّ» يبتسم على غير العادة وتفاءل بعودة الحياة، وأدرك أنّ الفلق آتٍ لا محالة وما عليه إلاّ أن يمسك بجيد النّاموس وأن لا يهابه ويخشاه.

وعاود ملامسةَ خطواته مرّاتٍ عديدةٍ وهو يحاولُ إعادة اللّحظاتِ القديمة واسترجاع ملامح أمّه، لكنّ فُرصه كانت ضئيلة وذاكرته قصيرة جدًّا، ولا جرم أنّ الماضي يقترب منه على غير صنيع الطّبيعة، هكذا اعتقدَ جازمًا أنّ جلفا نالت من ماضيه وشرّدت أسرته، وانهمك في قراءة السجّل وإعادة اللّحظات، وهو يفتّش كالمجنون عن مفتاح النّاموس، وعن سرّ ذلك الغبار الّذي استكان في روحه وحوّله إلى وحشٍ ليليٍّ يخاف معانقة الأنوار.

وفجأة تفطّن لصوت أنثويٍّ عالٍ:

– سيدي أريد النّزول إلى الطّابق السّفليّ، هلّا ساعدتني في ذلك؟

التفَتَ جون ناحية الصّوت فوجدها فتاة رائعة تشبه اليزا، الّتي حكا عنها جدّه في مذكّراته، وسرح في عينيها فكانتْ كحدائق ذات بهجةٍ، واستكشف جسدها العاري بدهشة وشعرها الأشقر المُتطاير، في الوقت نفسه فتّش في مُخيّلته القديمة بحثًا عن هذا الإحساس الّذي غيّبته السّنين، تظاهَرَ بعدم الاكتراث لها، والتفَتَ التفاتاتٍ كثيرةٍ فرّقها على أرجاء المغارة.

حينها فقط أحسّ جون أنّ الصّخرة الّتي بداخله تصدّعت عند رؤيتها، كان يُكلّمها بلغة رسميّة «تفضلي سيّدتي، أنت الآن في مغارة

«لاسكوا» أغرب ما أبدعه الإنسان القديم»، ثمّ بدأ باستعراض مهاراته التّاريخيّة:

– نحن الآن في جنوب غرب فرنسا بالضّبط في منطقة «لاسكوجرتو» على الضّفّة اليُسرى من نهر «فيزير» يمتاز هذا الكهف بكثرة الرّسوم، والنّقوش بطول يصل إلى مئة قدم، أُكتشف هذا الكهف.....

فقاطعتْه الفتاة بابتسامة عريضة:

– مهلا سيّدي أريد أن أُسجّل ما تقول لأنّي أحتاجه كثيرا.

– لا داعي لذلك، سنُزوّدك، بدليل يحتوي على كلّ ما قلتُ وأكثر من ذلك.

فكّر حينها في حديث مُختلف لكنه لم يجد شيئًا في جُعبته، فهو لم يخبَر هذه الابتسامة الّتي تشعره بالارتياح، كان يُطيل اللّقاء ويتفنّن في الشّرح:

– سيّدتي في هذه الصّخرة رجل عارٍ مستلق على الأرض، رأسه رأس عصفور ويداه مفتوحتان، كلّ يد تحتوي على أربعة أصابع.

وفجأة أطلقتْ الفتاة ضحكة هستيريّة ساخرة، وكأنّها نابعة من قرارٍ مكين، فقطّب وجهُه وشعر بالخزي حيال ما قاله، وحاول استدراك ما نطق به لسانه.

–لا جرم أنّك ستضحكين، لطالما تكرّر هذا الموقف لي.

وبرقتْ عيناه ترتقبُ المزيد منها، لكنّها ظلّتْ صامتة متسلّقة نقوش المغارة، لا تأبه لانبهاره بها، فأغطش ليلُه ولم يستطع كبح

فضوله، فسألها عن اسمها وعن حكايتها كلّها، وسرعان ما أخبرتْه أنّ اسمها لينا، وأنّها تدرس في الصفّ النّهائي بقسم الآثار حتّى تذكّر نفسه هناك، وتشابهتْ تفاصيلها فبدتْ أكثر تآلفا وانسجامًا وحين عودته اتّكأ على سريره يُفكّر في لقائه المريح، وعلى إنارةٍ هادئةٍ تصفّح صورًا من مذكّرات جدّه وقد تذكّر ابتسامة لينا.

الصفحة 30:

«كالعادة صباح مشرقٌ حارٌّ وسماء صافيةٌ وكثيرٌ من الغبار يملأ الأرجاء، صرتُ أشعر أنّ هذا المكان الجبليّ ملك لي، فملامحه وأركانه تعرفني جيّدا حتّى الحصاة الصغيرة تبتسم كلّما نظرتُ إليها، إلّا هؤلاء الحمقى الذين لا يُصدّقون ذلك ويرمقونني دائمًا بنظرات عدوانيّة، ما ذنبي أنَّ فرنسا وضعتْ لهم الأغلال وهذه العقوبات، لكنّهم يستحقّونها فهم همجيُّون ويتجرّؤون على أسيادهم بالتمرد والعناد دائما، رؤوسهم الخشنة هذه تزيد من عذابهم، وتقفُ ضدّهم في مُواصلة العيش.

تجمّع أولئك المتمرّدون كالعادة في الوقفة الصّباحية، ثمّ اصطفوا بصفوف مستوية لإلقاء شعارنا الوطنيّ المعهود، ووقف العسكر بمحاذاة الجبل المحيط بنا منضبطين، كانت الكلمات تُلهمني الإرادة والعزيمة في المواصلة، أمّا تصنّعي لتلك الوقفة المُتغطرسة، فكانت تبعثُ الخوف والرّعب في قلوبهم.

وبصوت عال تقدّم جنديٌّ حاملٌ للعلم الوطنيّ الفرنسي، ونادَى بصوت جهوريّ الصّدى:

«فهيّا يا بني الأوطان هيا.
فوَقتُ فخاركم لكم تهيا.
أقيموا الرّاية العظمى سويّا..
وشنوا غارات الهيجا مليا.
عليكم بالسلاح أيا أهالي.
ونظم صفوفكم مثل اللآلي.
وخوضوا في دماء أولي الوبال.
فهم أعداؤُكم في كلّ حال.
وجودهم غدا فيكم جليّا.
بنا خوضوا دماء أولي الوبال.
أما تصغون أصوات العساكر.
كوحش قاطع البيداء كاسر.
وخبث طوية الفرق الفواجر.
ذبيح بنيكم بظباء البواتر.
ولا يبقون فيكم قط حيا.
فماذا تبتغي منا الجنود.
وهم همج وأخلاط عبيد.
كذا أهل الخيانة والوعود.
كذاك ملوك بغي لم يسودوا.
تعصبهم لنا لم يجد شيا.

لمن جعلوا السلاسل والقيودا.
وأغلالا وأطواقا حديدا.
لأهل فرانسا ليروا عبيدا.
وليس مرماهم هذا جديدا.
.....«وامتلأ المكان بصوت واحد، كلهم يُكرّرُون»

كنتُ أراهما يهمسان ونحن نؤدي نشيدنا الوطنيّ، كان ذلك الفتى الذي ينادونه «بوشندوقة» الذي جِيْء به البارحة إلى هنا بسبب اعتدائه على العسكر يهمسُ همسًا خفيّا. تأكدتُ حينها أنَّ هذا الفتى سيفسدُ كُلَّ سنوات تعبي، ويجعلُ هذه الرؤوس الخشنة أكثر مرونة، ولحظة انتهائنا من الوقفة صرختُ في وجهه بكل قوّة وحزم كي لا يتكرّر هذا مرّة أخرى.

– تعاليا ... نعم أنتما.

جرَّدتُهما من ملابسهما ورُحتُ أُنزلُ سوطي عليهما دون توقّف حتى يتعلّما معنى هذه الكلمات جيّدا، وقيّدتُهما جوار تلك الصخرة الكبيرة المُقابلة للأشعّة الحارقة وحينها أحضرتُ الكرسيّ معي وجلستُ أمامهما.

– «بوشندوقة» ماذا قُلتَ له، أَتسيء الأدب حتىّ مع وطنك؟

– تلك كلمات تعنيكَ أنتَ وجُنودُكَ الحمقى ولا تَعنيني، لستُ فرنسيّا ولن أكون كذلك.

شعوري ذلك كان حقيقيّا، كان يحمل أفكار مشؤومة وذهنًا فطنًا جدًّا، حتّى أنّه كان مراوغًا إلى حدّ بعيد حينما قال بسخرية:

– أظنُّ أنّك تؤمنُ بكلمات «الكاردينال لافيجيري» عندما قدم إلى أرضنا.

«ابحثوا عن آثار القديس أوغسطين وغيره من القدّسيين والرهبان، يجبُ أن نُثبتَ أنَّ هذا البلد كان مسيحيّا في الأصل، حتى يقتنعَ الجزائريّون بالدّخول إلى المسيحيّة»، ووقتها وقفتُ مذهولًا لهذا الفكر الجديد المسموم، فهؤلاء القوم لا يعرفون غير طاعة الأوامر، فمن أين أتى بهذا الجرأة، لا شكَّ أنّ آثار تلك الثَّورات الّتي كنتُ أسمع بها عن ذلك الرّجل الأمير عبد القادر بدأتْ تمتدُّ إلى هنا.

أحسستُ من نبرة صوته أنّه ليس مُجرمًا عاديًّا يعتدي على العسكر لأسباب تافهة فقط، أسرعتُ حينها للوثيقة الّتي سلَّمها لي الجندي الّذي أحضره إلى هنا، وأكملتُ قراءة كلّ ما ساورني من الشّكوك.

«بوشندوقة خارج عن القانون، فقد قام بتحريض مجموعة من الشّباب على العصيان والتّمرُّد، أضف إلى ذلك أنّ دوريّات التّفتيش كشفتْ عن امتلاكه بندقيّة فهو الآن يقضي فترة وجيزة هنا حتّى إنهاء مُحاكمته الأسبوع القادم».

عُدتُ إلى ذلك الفتى الّذي كان يهمسُ معه لأستجوبَه بعيدًا عن «بوشندوقة»:

– ماذا قال لك؟

– كان يسألني عن مُدّة العمل هنا.

نظراته الغريبة وهمسه في الصّباح جعلني مُرتبكا يومها، مُتردّدًا في قراري، ولَمَّا هممتُ أن أقتُلَه منعتني تلك الوثيقة الملعونة من ذلك،

وجعلتني خائفًا على غير عادتي، ربّما لأنّها المرة الأولى الّتي يُسلَّم إليَّ المُعتقلون بهذه الطّريقة، انتظرتُ كثيرًا حتّى يحدث شيءٌ ما مريب، لكن لا شيء حدث، حينها ظننتُ أنَّها تلك الكوابيس المشؤومة الّتي أراها كلّ ليلة.

جلستُ على مكتبي ثمّ قلّبتُ دفتر الأسماء وكـأنّي أُفتّش عن شيء مميّز، أردتُ التّخفيف من توتّري وأنْ أُخرجَ ذلك الجُبن الدَّفين مُتناسيا الأمر وأطلقتُ سراحهما شرط أن يعملا ساعاتٍ إضافيّةٍ، فتلقَّيَا الأمر بنظراتٍ غامضةٍ ولم ينبسا بكلمة، فقط عملا دون توقّف.

وفي المساء وبينما الكلّ يعملُ والفوضى تملأ المكان، إذْ بجُنديّين يتّجهان نحوي بسرعةٍ يدفعان أمامهما صبيًّا، وللحظةٍ ارتمى على الأرض، وراح يبكي متوسلا إليَّ، يُكرّر خائفا «أريد أن أرى أبي فقط ولو لمرّة واحدة». استغربتُ قدوم الصّبي للمحجر، من أين أتى؟.. فالمدينة بعيدة كثيرًا، ثم إنَّ الكُلَّ يخافون القدوم إلى هنا سألتُه:

– ما اسمك وكيف أتيتَ إلى هنا؟

أجاب وهو يُشير إلى قدميه الحافيتين، قال أنّ حذاءه تمزّق وقد قاسى كثيرًا كي يصل إلى هنا، ثمّ ترجّاني بأن أُلبّي له رغبته في رؤية والده، ثمّ صمَتَ مُتنهّدًا بعدها قال:

– أنا هواري يا سيدي ووالدي هو «بوشندوقة».

ارتحتُ للغته الفرنسيّة المضحكة ثمّ أجلستُه على الكرسي، وقدّمتُ له شربات من الماء ليستردَّ أنفاسه، ربّما أردتُ أن أُكفّر قليلا عمّا فعلتُ في أبيه بسبب وساوسي. عيناه الصّغيرتين الثّاقبتين جعلتاني أتجنّبه

بعفويّة دون أن أتساءل عن سبب ذلك كنتُ أُكلّمه مُرسلا وجهي بعيدا عنهما، قلت له بهدوء:

– أتعرف ماذا فعل والدك؟

– أعرف أنّه خائن يا سيدي، ولكن لا تلُمه في ذلك، لأنّهم كانوا يأتون إليه كُلَّ ليلة في المنزل، وكانوا يحرضّونه على سبّ وشتم دولتنا فرنسا، أظنُّه أفرغَ ذلك الصّمت الطّويل في خصامه مع ذلك الجندي.

– من هؤلاء الّذين أتَوا إلى منزلكم؟

– أقول يا سيدي ولكن أخاف أن تُؤذيَ والدي. عدني بأنّكَ لنْ تتعرَّضَ له.

– قل يا هوّاري... بكلامك هذا ستحرّرُ والدك من عار الخيانة وسيُخفَّفُ حُكمه.

– إنّهم عشرة رجال يا سيّدي، كنتُ أسمع والدي يقول لأمي عندما يأتون كلّ ليلة: «لقد جاء أصحاب المقبرة»، لم أفهم ما يقوله والدي حتّى شاهدتُهم ذات ليلة وأنا قُرب منزلنا، وهم يتسلَّلون إلى المقبرة المُجاورة كالأشباح الطّائرة بعباءات سوداء ورؤوس بيضاء، حينَها خفتُ كثيرًا وأحسستُّ أنَّ أبي قد تغيّرتْ تصرّفاته منذ زيارتهم لنا، فلقد رأيتُه ساعاتٍ كثيرة شاردا.

قاطعتُه قائلا له:

– أكمل ماذا فعلوا عندما دخلوا المقبرة؟

– لم يفعلوا شيئًا، بلى أُصارحكَ يا سيّدي، وحينها لحقْتُهم إلى الداخل وفجأة اختفوا ولم أر أحدًا ،أظنّهم رجالًا يتحوّلون إلى أشباح، فهم سريعو الحركة ويقتلون بعنف أقصد تخيّلتُهم هكذا يا سيدي.

كان الولد يستهزئ بي، ما هذه الأشباح الطّائرة، فكّرتُ في شيءٍ غريبٍ ولكنّي لا أريد أن أُصدّقه، هل أبْلَغَني رسالةً ما حينها قال:

«يقتلونَ بعنف» تناسيتُ وساوسي بسرعة، لأنَّ الولد لم يكنْ قاصدًا ذلك، كان الولد يثرثرُ فقط في حكاياته الكثيرة الّتي كانتْ كُلّها أشباح وأوهام، ظننتُه يُحاول إقناعي فقط لكي يرى والده، صحتُ فيه وهو يُثرثر:

– اذهب إليه واصمت قليلا، هو خلف تلك الصّخرة ولا تُطل في لقائه، فأمامك منذ هذه اللّحظة عشرون دقيقة.

انطلق مُسرعًا كالسّهم واختفى بين ذلك الغبار الكثيف، تعجّبتُ لمشهده بيننا وكيف سمحتُ له بذلك؟

حاولتُ نسيان أمره لكنّي لم استطع فأفكاري كانتْ تقودني إلى مكانهما، كنتُ أراقبه من بعيد وقد بلغَ والده خلف تلك الصخور، لم يكن الشّوق على قدر تلك الدّموع الّتي ألقاها في بادئ الأمر، رأيتُه يهمُس بكلام كثير ويُسرع في ذلك كأنّه متيقّن أنّ تلك الدقائق لا تكفيه.

وخلسة عن الأنظار وضع الصّبيّ ورقةً في جيب بوشندوقه وهو يُعانقه، لم أُصدّق ما حدث وراودني شكّ مريب، حينها أسرعتُ إليهما وأنا أجهرُ بغضبي نحوهما، والتفتَ الكلُّ إليَّ ورموا أدواتهم على الأرض، لعلّها كانتْ استراحةً لهم من العمل، لكنّي رأيت غير ذلك، فأمر وجل يُنسج ونحن لا نكترث بما يحدث اتّجهتُ إلى «بوشندوقه» مُباشرة وأدخلتُ يدي في جيبه فوجدتُ الورقة، لم أفهمْ شيئا مما فيها فقد كانت مكتوبة بالعربيّة، ناديتُ أحد الجنود وأمرته بترجمتها فقرأها:

– «نحن الأشباح سنطير قربك كما فعلتَ ذات ليلة».

لم أفهم شيئًا ممّا كُتب وللحظة ثار جنوني، أخذتُ الصّبّي بعيدا عنهم، وحاولتُ استنطاقه بضربه بالسّوط وتعذيبه لكنّه كان يُكرّر قصّة المقبرة والأشباح، سئمتُ من كلامي معه وتخاريفه. دفعتُه بقوّة فاصطدمت مؤخرّة رأسه بالصخور وسقط ميّتا، لم أعرف ما الذي جرى لي في تلك اللّحظة، فقد أحسستُ بغضبٍ شديدٍ يعصف داخلي.

لقد قتلتُه من أجل ورقةٍ غريبةٍ، حينها تعالتْ أصواتٌ صاخبةٌ وضجيج وتدافَعَ العمّال نحو الجنود بالفؤوس، وكنتُ متجمّدًا واقفًا في مكاني لا أجرؤ على اتّخاذ أيّ قرارٍ، ماذا أقول بعدما قتلتُ صبيّا بريئا كـهواري، لكنّ صوت وطني كان أقوى منْ أنْ أضْعُف في لحظة كهذه.

وقفتُ صارمًا وأمرتُ بإطلاق الرّصاص لإخافتهم، تراجعوا وعيونهم الحمراء تكاد تعصف بعقلي، ثُمّ أرغمَهم الجنود على المتابعة والعمل، دفنّاه أمام تلك الصّخرة وتلوْنا على قبره كلمات المسيح لعلَّ روحه البريئة تُنزل الرّحمة والبركة على وطننا فرنسا.

ومع حلول الظّلام بدأنا بجمع الأدوات وتنظيمها للمغادرة، ثمّ تقدّم الجنود لوسط السَّاحة مُستعدّين عند السّفح الجبليّ، وفجأة انتشرَ صوت عالٍ لجندي مهرولٍ نحونا:

– «شبحٌ أسود يا سيدي يتحرّك قرب الصُّخور».

ظننتُه يتوهَّم فقد كان المكان مُظلمًا، وحينها تقدّمنا إلى الحواف وصعدنا التّلّة مُتجاوزين الحجارة العالية، كنت أنوي تجاهل تخيّلاته المشؤومة لكنّي أردتُ أن أمحوها من رأسه، فقلتُ له ساخرًا:

– «أين هو أيّها الجبان؟».

وفجأةً رأينا مشهدًا مذهلًا على شفقٍ برتقاليٍّ، مئاتٍ من العباءات السَّوداء تُحيط بالمكان، كانوا رجالًا وليسوا أشباحًا يحملونَ أسلحةً وبنادقَ، حاصرونا بإطلاق النّار، سقط الكثير منَّا صرعى وتدحرجْتُ أنا والبقيَّة منسحبينَ على الأرض إلى الأسفل واحتمينَا بالصّخور، كانَ لباسهم مميّزًا وحركتُهم سريعة جدًّا، تذكّرتُ حينها كلمات ذلك الولد الهوّاري، ووصفَه لهم كان محقًّا في ذلك، ولمْ يَكُن يكذبُ.

لكنّه خدعني حين سلَّم تلك الورقة لبوشندوقه، لعلَّه أخبرَه عن هذه اللَّحظات بتلك الكلمات الغامضة الّتي كُتبتْ في الورقة، وبسرعةٍ التفَتُّ إلى السُّجناء وإلى «بوشندوقه» فلم أجد أحدًا كُلُّهم فرُّوا إلى أعلى الجبل، تبادلنا إطلاق النّار ثلاث ساعاتٍ كاملة، كنتُ حينها متيقّنًا من هلاكي فتعمدّتُ إطالة الوقت، واستنفاذ كلّ الذَّخيرة حتّى يسمعَ العسكر الجواري دوّي الرّصاص المُرتفع، وبعد ذلك انتشرَ هدوء مُرعبٌ.

تأكّدتُ حينها أنّهم رحلوا، فدفعتُ بأحد الجنود إلى الأعلى الّذي أشار إليّ حينما صعدَ بأنّ المكان خال وأنّ لا أثر لهم، نظرتُ حولي فلم أر سوى ستّة جنودٍ خائفين، فكلّهم قُتلوا وثلاثة آخرون مصابون بجروح، بعدَها جلبَ لي الجندي ورقةً أخرى قال أنّه وجدها في الأعلى مكتوبة بالفرنسية:

«إذا أردتُّم أن تقتلوا الأطفال فواجهوا أشباحكم أوّلًا».

حينها تأكدتُّ أنّها نقطة تغيّر ومنعرج كبير في حياة الفرنسيّين، حتّى هذه المنطقة أصابَها ذلك الوباء المنتشر في الجزائر، وسيفسد كلّ

ما صنعه أجدادنا إذا لم نُحرّك ساكنًا، ربّما يكونون من الأهالي، أو ربّما أناسٌ متشرّدون في الجبال والأودية، أو ربّما هم أشباحٌ حقًّا لذا يجعلون المقابر طريقهم كما أخبرني ذلك الصّبي.

لم أفقد نفسي في تلك المعركة فقد نجوتُ بأعجوبة، ونجتْ معي كثيرٌ من الكوابيس السّيّئة، مرّ زمن على تلك الحادثة ومازال النّوم يأبى أن يُعانق جفني بسبب تلك الصور اللاّصقة في ذاكرتي، كنتُ أتذكّر مشهد ذلك الولد ميّتًا وبقع الدّماء الوردية مُحيطة به، لكنّي أنتفض وبشدة قائلا: «ذلك الولد المخادع كان يستحقُّ ذلك».

وما إن أكمل حتّى رنّ الهاتف بالجوار فاستفاق جون من قطع اللّيل المتلاحقة وطوى سجّل جدّه كما تُطوى سماء مُوغلةٌ بالغيوم، وحقّ عليه القول في أنّه سيعيش حياتين معًا.

يستفيق من محجرٍ قديمٍ ويُلاحقه غبارُ الزّمن الغابر، وقد أدرك جيّدًا أنّ ما أصابه مرضٌ خبيث تسلّل مذ سديم السّنوات الماضية، فحدّث نفسه بالرّحيل لمدينة جلفا مرارًا وتكرار لكنّه قنط، وأصبح من الآيسين حينما همس في داخله:

«كلّ الّذي قرأتُه أحلام أضغاثٌ متراكمة تكاد تهلكني، فكلّهم قد واراهم التراب وماتوا، فلأيّ مكان أشدّ الرحال؟ أأذهبُ هناك هائمًا كالدّواب أجوب تلك القفار البعيدة، فيُصبح غيابي سرمديّا ويُنسى اسمي كما تُنسى النّجوم في ليلٍ بهيم، وأين ذلك المحجر الّذي تكلّم عنه جدّي؟ أهو حقيقة أم خيال؟ لا شكّ أنّه أصبح مكانًا تزوره الغرابيب السّود، فتقف شامخةً على أجداث أولئك القوم، فتنقر أجسادهم نقرًا حتّى يسمعه الموتى وأهل المدينة كلّهم على السّواء، ما

ذنبي وما شأني بكلّ هذا الهراء الّذي لا أعرف كُنهه، أم هو الجنون يعصف بي».

سرعان ما طرد كلّ تلك الوساوس، وأسرع للهاتف علّه يكلّمه الصّوت المبحوح فيشكره على صبره، وقوّة بأسه ويشدّ أزره بخبرٍ يقين، وصعد دمه حتّى صدغيه حينما أجاب، وأصابه ارتعاشٌ خفيٌّ عند عرقوبيه.

فكلّمته لينا بصوتٍ ملائكيّ جميل، فزال عنه الذي أصابه وابتسم كطفلٍ مفزوع وأخبرتْه أنّها لم تجد للنوم منفذا ولا فوْتا، وأنّها ظلّتْ طوال الوقت تسترجع صور النّقوش مخمّنة قصصا وحكايات عنها، وترجّتْهُ أن يَقْدُم إليها فهي على الأرجح مُصابة بالجزع والخوف، ذلك أنّها حينما تُغمض عينيها ترى تلك الصّور كأنّها رؤوس شياطين.

وهكذا أزاحت عنه الهمّ وتنفّس الصعداء وتيقّن أنّه الودق الذي سيأتي بعده الفرج القريب، وبعد وقتٍ قصيرٍ وقف أمام باب منزلها متلهّفا، فوجد الباب مفتوحًا وأطيافه الضّوئيّة متسلّلة كالحلم الجميل، كان المكان هادئًا، فشعرتْ نفسه بالأمان واستأنس بكوّة المنزل المضيئة.

لكنّ ذلك لم يدم طويلًا فقد انطفأ الضوء فجأة وكأنّه الليل سجى والنّور اختفى، وما أشبهها بتلك الليلة حينما كان في المغارة، وشاهد حينها تلك الحيوانات المحلّقة في أبهى لونٍ وأجمل منظر.

بدا في تصرّفاته أكثر جُبنًا، مثل طفلٍ صغيرٍ يكتشف الأشياء من جديد، فيرسل إحدى رجليه في الظّلام ويسرع في وضع الأخرى على الأرض كأنّما يتخطّفه الطّير.

ولا جرم أنّ مبرّرات هذا الخوف كثيرة، تبادر إلى ذهنه أنّ ذلك النّاموس كان يرتقبه، ووقف مبهورًا تمور به الأرض مورًا دون أن يفعل أي شيء، ثنى ركبتيه وهو ينظر إلى وشاح جدّه، وكأنّه يؤمن ببعض الأساطير القديمة، وأمعن النّظر مجدّدا فيه لكن دون جدوى، ثم أشعل سيجارة مُتناسيا القصّة، طاردا الأفكار الملعونة من مخيلته، ورسم ابتسامة مصطنعة على وجهه حتّى أصبح فؤاده هواء وأضمر خوفه في داخله.

مشى بخطواتٍ ثابتة للمنزل، ففُوجئ بإنارة حمراء خافتة وطاولة تتوسّط المكان وشمعتان وصحون ذات ألوان مميّزة، كان المنزل حالمًا فتفاءل بالخواتيم وألقى بذلك النّاموس في غياهب روحه، وشجّعه نداء العقل على استراحة طويلة، حتّى كلمات لينا جعلتَها طويلة لحدّ بعيدٍ جدًّا:

– منذ سنوات وأنا أشاركُ هذه الأطباق كلَّ أعياد ميلادي، فأترُكُها فارغة، وبَدَلَ أنْ أفرحَ وأفتّشَ هداياي بشغف وفضول، أرسلُ كثيرًا من الدّموع لتنطفئ تلك الشمعة الوحيدة، فتنتهي كلُّ أعياد ميلادي بكثير من الملل والألم وجلسات الضّجر، كأنّي أعيش في جزيرة وحدي بعيدًا عن كلّ البشر، أقول هذه الكلمات لأنّي أريد أن أُشاركك اللّيلة لحظاتٍ مختلفة».

تسلّق جون تلك الكلمات الدّافئة كما يشدّ الحبال الطويلة ليصل إلى فتاته، وتسلّقها لحظةً بلحظة، ساقان عاريتان مثيرتان ثمّ فستان أحمر، وأزمنة طويلةٌ حتّى ينتهي من جسدها الخرافي.

عانق عيْني لينا العسليتين بعينيه البائستين، كان كمنْ يحضنُ صبيًّا تائهًا منذ سنوات فيسمعَ في صدره كلّ خطواته التّائهة، ودقّات قلبه الخائفة فيُرتّبُها من جديد بعناق واحد، وشاءت الأقدار أن يكون بينهما ودّ وانسجام، فاستأنس بها وأخرج لها الخبء الّذي كان يكتمه من أحجية الغبار ومذكّرات جدّه، فواستْه وخفّفت عنه الحمل الّذي كان يثقله.

* * *

متحف اللُّوفر

هيّأ جون نفسه ووضع ربطة العنق، مُلقيًا بذلته المعتادة على السّرير، نظر إلى الساعة مرّات كثيرة كما لم ينظر إليها من قبل، فهو يعتبر هذا اليوم لحظة ميلاده أو أكثر من ذلك.

منذ أمد بعيد وهو يزور متحف اللّوفر، يتجوّل حديقته الواسعة كمجنون تائه ضاع منه كلّ شيء، وقبل أن تأسره تلك الأضواء الملائكيّة، يتبادر إلى ذهنه تخمينه القديم الّذي صار يحفظه كلّما تذكّر المتحف، فحينما تزدحم ذاكرته بذلك الفنّ التّحتي البشريّ في أروع زحامٍ من البرونز والفضّيّات والزّجاج.

يتساءل... هل كان يخطر للملك «فيليب أوكست» وهو يصدر أمرًا ملكيًّا ببناء قلعة في الموقع المسمّى «لوبار» عام 1190 أنّها سوف تتحوّل في العصور التّالية إلى واحدة من أروع أمجاد فرنسا؟.

هل خمّن يومًا أنّي سأعشقها حدّ الجنون كغيري من البشر المتدفقّين إليها كل لحظة؟.

لعلّ روحه تحلّق كلّ ليلة في أرجائه فرحةً، كأنّما تنشقّ الأرض وتبلع كلّ حزنها وبؤسها خلف ابتسامته الآسرة، ككلّ سنة وصلته

البارحة بطاقة دعوة من متحف اللّوفر (musée du louvre) لحضور ذكرى افتتاح المعرض، هو يعشق هذا المكان كثيرًا، لوحات زيتية وآلاف من القطع الأثريّة تنتظره هناك، وكثير من علماء الآثار والباحثين والرّسّامين العباقرة.

وساعتها فكّر في ذلك الغبار الّذي استكان في نفسه، ورأى من الأفضل أن لا يبقى في مكان واحد، وأنّ عليه التّجوّل والتّرحال كي تهدأ نفسه، وهكذا ودّع مذكّرات جدّه ومرّر أصابعه على غلافه الخشن كما كان يفعل كلّ مرّة عندما يهجع إلى النوم.

وكأنّه يودّع جدّه وذلك المحجر القديم الّذي أَلِفه كثيرًا وسكن روحه، كان قد رأى في المنام ليلة البارحة أنّ المحجر تحوّل إلى ساحةٍ عظيمةٍ، حينها وقف كثيرٌ من البشر عراةً خائفين، وكانوا يردّدون النشيد الوطني الفرنسي بصوت مرتعش وكأنّهم ينظرون طارئًا جديدًا.

وهكذا غدتْ كلّ حياته كوابيس، وأضغاث أحلام تؤرّقه وتفسد صفاء ذهنه، علاوة على ذلك فقد زار المكتب الشّيوعي الذي كان أدمنه قبل أن يحدث ما حدث، ووجد أنّه اختفى وزال أثره.

كان المكان هادئا خاليا، فخمّن أن يكونوا غيّروا موقعه وانزووا بعيدًا إلى مكان قصيٍّ لن يعرفه، فلم يتّصل به أصدقاؤه ولم يخبروه بشيء، وربّما ظنّوا أنّه من جواسيس الحزب الشّيوعي المتطرّف، وبهذا يكون قد أُقصي من اجتماعاتهم ومجالسهم، فأسفَ لذلك أيّما أسف وحزن لأنّ أصدقاءه ظنّوا به الخيانة للوطن.

ودّ في تلك اللّحظة أن يضرب عنق مديره الملعون «أندري» وينكّل به، فهو سبب فرار أصدقائه من ذلك المكان، وكان قد تعجّب منه آخر مرّة حينما التقاه في ملتقى الكتابة، وكان يتكلّم عن الحركات التحرّرية، وعن مقاطعة الجزائر، ويدافع عنها مبرّرًا ذلك بأنّ الأهالي هناك من حقّهم أن يكونوا أحرارًا، وأنّ الأحزاب الفرنسيّة تشعل لهيب الفتنة كي تبقى القضيّة عالقة زمنًا طويلًا.

كان يملك عبقريّة في التأليف والشعر، وقد تحدّث عن رواية قد شرع في كتابتها وأنّها تحكي عن بطلها الّذي كان من مدينة وهران[1] المنتمية للمقاطعة الجزائريّة وكان البطل اسمه «الهوّاري»، وقال أنّها مقتبسة من قصّة واقعيّة تأثّر بها.

وكيف أنّ بطلها كان يعمل في مطعم الثّكنة العسكريّة الواقعة بالمنطقة، وقد وُكّل إليه تحضير الأكل للجنود، وكان شابًّا ذكيًّا وفطنًا، فقد تأقلم بسرعةٍ هناك في المكان وصادق الكثير من الجنود وأحبّوه جدًّا، ودار الزّمن وتشابكت الأحداث فأصبح بعد سنوات خارجًا عن القانون وموالِيًا لأحزابٍ متطرّفةٍ، كانت تدعو لتحرّر مقاطعة الجزائر.

وراح المدير أندري يسرد تفاصيل حياته المتقلّبة، ويكشف أسرار تلك الثّكنة العسكريّة، وقد رتّب مواعيد للقراءة والتوغّل في سطور الرّواية، الّتي كانت تبدو بنظر جون خُططًا يُعدّها الرّجل كي يُوافقه

1- وهران: تنطق باللهجة المحلية «وهرن»، الملقبة بالباهية هي ثاني أكبر مدن الجزائر بعد العاصمة وإحدى أهم مدن المغرب العربي، تقع في شمال غرب الجزائر على بعد 432 كيلومترا عن الجزائر العاصمة. مطلة على خليج وهران في غرب البحر الأبيض المتوسط، ظلت المدينة منذ عقود عديدة ولا تزال مركزا اقتصاديا وميناءً بحريًا هامًا.

الحضور في ما يقول، ويضمّهم للحزب الشّيوعيّ المتطرّف، لاسيما وأنّ المنخرطين لهذا الحزب انتشروا بفظاعة، وكأنّ الفاشيين الألمان كانوا يدّعمونهم كي تزداد الحركات الانفصاليّة ويتفكّك الوطن من الداخل، ولكّن المدير كان مقنعًا لحدّ بعيد وفيلسوفًا أيضًا، ومن الصّعب أن يعرف أحدهم فيما يفكّر.

وكان يتحجّج بالتاريخ القديم لفرنسا وكيف أنّها ساندت قضايا الحريّة، وساعدت على انتهاء كبرى الحروب في العالم، وكان جون يرى في هذا الرّجل عالمًا مناقضا لمذكّرات جدّه، فقد بدتْ أفكاره ناقمة ساخطة على حكاية جدّه، ونظرته لأولئك الأهالي القاطنين في مدينة جلفا، فكلّم نفسه حينها قائلا: «هو لم يلتقي أولئك البربر ولم يعش معهم لحظة واحدة، وبعد أن عرفتُ الحقيقة من تلك المذكّرات صار باستطاعتي أن أردّ كل كلمة قالها بقصص بشعة عنهم، وأنا متأكّد أنّه حينما يزورهم سيغيّر طريقة تفكيره وسينزوي في ركن بعيدٍ مُعاتبًا نفسه.

وسيلْعَنُ هذه الكتب الدّخيلة التي يقرؤها، ويبثّها هنا وهناك، وما هؤلاء القاعدون هنا سوى مساكين خدعهم هذا المعتوه بلسان حادّ وأفكار خبيثة. متأكّد أنّه لن يستمرّ طويلا، وسينتهي به الأمر مُعلّقًا على أسوار الملل مُعدما، وسيصير كدُمية خشبيّةٍ ملعونة لا تُسمن ولا تُغني من جوع».

في المساء وصل جون مُتعبا بعد ساعات طويلة من السّفر، ركن سيّارته جانبا، ثمّ نزل منها مُسرعا مسحورا بروعة المكان.

أرسل نظراته المندهشة ككلّ مرة إلى الحشود الوافدة والسيارات الفخمة، وسحر الألعاب النّارية التي تُصاحبها الأوبرا الحزينة، ولا جرم أنّ الأجواء مناسبة جدًّا لأن تجعله هادئًا وبعيدًا عن كلّ ضغوطاته النّفسيّة، كانتْ الأطياف الّتي تُرسلها المصابيح العملاقة تجعل الساحة مدهشة وآسرة، وكأنّها تخترق الحاضرين وتُحكم في إمساكهم لترسلهم إلى داخل المعرض.

حدّق جون بعينين غائرتين إلى قوافل البشر الّتي توافدتْ هذا المساء إلى المتحف، وجوه غير مألوفة وجنسيّات من مختلف العالم تتدفّق كالموج الأزرق الآسر، لم يلبثْ جون كثيرا حتّى انتبه إلى وجود ملصقة لتظاهرة الألواح الزيتيّة وكانت الملصقة تشير إلى حضور رسّامين من كلّ فجّ عميق، للتّسابق من أجل نيل جائزة لوحة «اللوفر».

تقدّم جون إلى مدخل المعرض، لكنّ العامل أعلمَه بضرورة إظهار دعوته والتنحّي جانبا، فاستدار راميا بنظراته المتعبة ناحية سيارته المركونة بعيدا، وفتّش جيوبه ولكن دون جدوى، بعدها تفنّن في إرسال خطواته الواثقة هنا وهناك، وكان في الوقت نفسه مُستمتعًا بالجمهور الغفير، وفجأة لمح فتاة تشبه لينا، فالتفتَ اتجاهها ودقّق النظر، لكنّه في لحظة ما من زمن الالتفات اصطدم برجل من المارّة:

– عذرًا سيدي عذرًا سيدي.

كان رجلا وسيما يرتدي معطفًا أسود، ثاقب النّظر، خُيّل له للوهلة الأولى أنّه من الشّخصيات الحكومية، كان ذلك يبدو كشعور هامشي

لم يعرف كُنهه، بل جعله مرتاحا حين رؤيته وكأنّ روحه مألوفة عنده، ودون أن يتكلّم معه رحل مُسرعًا.

«سيداتي وسادتي حان زمن التميّز، وأعني التميّز حقًّا، لأنّه من سيفوز الليلة بجائزة لوحة اللّوفر ستُعلّق لوحته هنا بجانب الموناليزا، وسيتمّ الإعلان عن الفائز بعد ساعتين من الآن لأنّ الألواح المُشاركة هذه الليلة تفوق ألف لوحة أضف إلى ذلك أنّ الفائز سيُلقي كلمة على أعظم منصّة تاريخيّة،استمتعوا بوقتكم قبل ذلك الحين وشكرًا».

على وقع هذا الخطاب القصير كان جون يعبر «ممرّ دينون» كي يزور الموناليزا» وطوّافة الميدوز «جنيّة البحر»، وسار بخطواتٍ واثقةٍ مقبلة إلى الحلم الذي لم يهدأ في نفسه لحظة واحدة، وكانت الأماني تتعلّق به مبتسمة وكأنّها عادتْ بعد كابوسٍ فظيع، ونسيَ الّذي حدث له، وتفاءل بغدٍ أفضل لاتشوبه الشّوائب، فكلّما زار هذا المكان تجدّدتْ حياته وتعبّقتْ بالياسمين، وطرأت عليها تفاصيل جديدة.

وحين ذلك الزمن القصير من شروده ظهر فجأة رجل مُلثّم وقابله بوجه عبوس مُضمرًا غضبًا شديدا، كان يبدو أنّه لصّ، فقد كان يحملُ لوحة مغطّاة بكيس كبير فتيقّن حينها أنّه سارق «الموناليزا» الذي يشّع كضوء أبيض ناصع كلّ عام فيُعيد وقع لمعانها في قلوب الملايين من البشر.

وخمّن في أنّها لن تكون هي، فالموناليزا لا تستسلم أبدا بهذه السّهولة ونطق مستنجدا بالجموع الغفيرة، لكنّ صوته المبحوح لم يتجاوز شفتيه، فأصابه الذّعر من هول ما رأى وادلهمّتْ به الخطوب، وحدّث نفسه بالحراك وتراجع عن ذلك.

ثمّ عاوده الصّوتُ العميق فانتشر الغبار الدّفين في داخله كما ألفه أوّل مرّة، لكنّه لم يستسلم للّذي أصابه من الهون والضعف، وشَحَنَ روحه بالشّجاعة والبطولة فهاجمه كأسد هصور وأسقطه أرضًا، وانهال عليه بالضّرب ثمّ أخذ منه اللّوحة ورماها بعيدا عنه، لكنّ بطولته لمْ تَصْدُق وخيبتُه ظَلّتْ ملتصقةً كظلّه، فحينما فعل ذلك تعالى صوت مُنكر لما فعل وانتشرتْ قهقهة عالية، وعندما رأى تلك «الكاميرا» التي يستعملونها في السّينما أدرك أنّ اللّص لم يكُن واقعًا، وكشف عن اللّوحة فوجدها حَطَبًا أصمّ، فأغطش ليلُه وانتشرتْ حوله الضّوضاء.

وقال أحدهم ساخرا:

«أتُراك مُغفّل أم أصابك الجنون، ألا ترى هذا الجمع الغفير والأضواء الكاشفة كيف تفكّر أنّ لصّا قد يكون بيننا؟».

فابتسمَ وطلب منهم المغفرة والعفو، وتحجّج بأنّه مُولع بالرّوايات والأفلام، وهكذا جَرتْ الأمور وهو يتجوّل المتحف مُستكشفًا كلّ صغيرة وكبيرة، قفز بين قاعات اللّوفر كالطّفل الصغير وهو يشاهد القطع الأثريّة، وعرض أفكاره على شخصيات بارزة ورسّامين مشهورين، وكان في كلّ مرّة يُجادلهم متعصّبا، فينفضّون حوله ويتركونه كعود يابس لم يبلّله قطر ولم تكسه أغضانه الخضراء.

وقف متأمّلا عدّة لوحاتٍ عالميّةٍ «فرانس الأول» للرّسام «تيتان» ولوحة «تايلون الأوّل» لدافيد ولوحات كثيرة، أرادَ حينها أن يتصوّرها ويتأمّلها جملة واحدة، أراد أن يختزلها ربّما في كلمة واحدة،

ويُخبّئها في نهايات داخله، لم يُصدّق أن تكون صامتة طوال الوقت، وجامدة تستقطبُ إليها كلّ هذا الحشد وهذا الإعجاب، هو لا ينسى تلك اللّيلة حين قاده النّاموس بإلحاح إلى المغارة في ساعة متأخّرة.

اقترب ولمس الصّخور البرتقاليّة بدهشة، كانت تُطلق ألوانًا قديمة وصمتًا غريبًا وكثيرًا ما كان يستيقظُ ليلا ليجد نفسه واقفا متسمّرا أمام بوّابة المغارة، وقد أصابَهُ أرقٌ مُزمنٌ لا يُغادره أبدًا حتّى يحدّق في النقوش، ويُفتّش بشغف عن سرّ لاحقَه منذ أن وقب المكان.

وقد خمّن أنّ هناك بابًا أو معبرًا خياليًّا يُوصل بالضّفّة الأخرى، حيث تُوجد هذه الرّسومات حرّة طليقة، لا تأسرها الصّخور ولا يُذهب نورها وصفاءها كثرة الزائرين، وآتكأ على إحداها وأنفاسُه مُتقطّعة مرهقة.

وكان يُحاول جاهدا فصل هذا الكابوس الذي لاحَقَه منذُ أن سطَعَ الغبار عنوة فكان أينما ذهب يُؤوّل الأمكنة خرافات وقصص، وبينما كانتْ عيناه تمزجان النّوم مع اليقظة، إذ بفراشات الضوء الصغيرة تنتشرُ في الكهف، فابتسم وتمدّد على الأرض، وسرعان ما تحولّتْ الكائنات الصّغيرة الطائرة إلى غزلان حمراء غامقة، ساعتها تأكّد جون أنّ كلّ القطع العالميّة القديمة لها حياة أزليّة، وتتكلّم دائمًا عندما نكون نيامًا، تعلّم حينها الحديث معها ومُخاطبتها بكل سهولة، وتفطّن مرّة أخرى لتلك الرّحلة الزمنية، فقد انتهى به الخيال للموناليزا لوحة كلّ الأزمنة، هي الوحيدة الّتي تجعله مُستيقظًا حين مُشاهدتها مُستمتعًا بألحان الأوبرا.

«سيداتي وسادتي لقد تمّ اختيار لوحة اللوفر لسهرة اليوم من طرف لجنة تحكيمية متكونة من إحدى عشر مختصًّا، وقد اختاروا لوحتين اثنتين عنوانهما «صخور سرمديّة» والأخرى «خبز مانويل» لكن اللّوفر لا يقبل القسمة على اثنين لذا قرّرت اللجنة أن تقدم صاحبا اللّوحتين لشرح مضمونهما فتتأكد اللّجنة ويميز الأحق بهذا التّتويج ».

الرجاء من المرشح الأول أن يعتلي المنصّة.

– اسمي رونان لوحتي هي «خبز مانويل» كما تُشاهدون عبارة عن ولد صغير اسمه مانويل، ينظر إلى الشّمس بغضب شديد لأنّها تُحاول سلبه قطعة خبز كان يُمسكها بيديه اليمنى وهو يتصبّبُ عرقا.

حينها نطق أحد الحكّام مُتسائلا:

– ماذا تعني بهذا الرّسم؟

– أقصد يا سيّدي أن هذا الولد المسكين تخلّى عنه كلّ الناس، ولم يشعر المجتمع يومًا بمعاناته ممّا جعله ينظر إلى إلهه بغضبٍ شديد، ينظرُ إلى الشّمس الحارقة ولا يتركُ لها الفرصة أن تسلبه إيّاها، فأُناشدكم يا سيّدي أن تُعلّقوا اللّوحة هنا لتُعبّر عن شيء قليل من إحساسنا بهم.

وحالما انتهى تفاعل الحضور مع اللّوحة وانفجرتْ القاعة بالتّصفيق وكلمات الإعجاب.

الرّجاء من المرشح الثّاني أن يعتلي المنصة.

وحينما فعل ذلك رآه جون فتأكّد من أنّ شكّه كان صادقا، وأنّ ملامحه مألوفة، كان يُشبه كثيرًا الملامح البربريّة القاسية التي تكلّم عنها جدّه في مذكّراته.

وتذكّر وصفًا دقيقًا منها وانبهر لتطابقهما، ورأى من معين الحكايات سّرا سرمديًّا راح يتجلّى، وكأنّ ذلك الغبار كان يتنبّأ بما يلحقه من أحداث، فقبْلها قرأ خبر الفتاة ايليزا فالتقى بـلينا فكانت تُشبهها تمامًا، وتطابقتْ ملامح أولئك البربر مع هذا الرّجل إلى حدّ بعيد، وكأنّ الحياة الماضية تتسلّل عنوة وتستطير.

وخمّن أن يكون قَدره مكنونًا في صفحات الكتاب الخشن، وابتسم لأنّه لم يحرقه تلك الليلة، وأنّه تريّث وحكّم صوت العقل.

وجّه عينيه إلى الرّجل مُحدّقًا كأنّه يرى فيه الرّجل الهارب من زمن غابر وأصغى لحديثه علّه يخبره بحكايةٍ قديمةٍ عن جدّه، فرأى فيه الكائن الخياليّ الّذي تجلّى وتحدّث في نفسه أن يُكلّمه ويسأله عن الغبار، ويروي له حكاية السرّ الدّفين علّه يخبره عن الأحجيّة خبرًا يقينًا واعتلى الرّجل المنصّة فقال:

– اسمي زياد ولوحتي هي «صخور سرمديّة» وكما تُشاهدونها هي عبارة عن مدينة صخريّة، وكثير من الموتى وبقايا من حياة تُحوّلها الصّخور المتساقطة إلى رماد، في هذه المدينة أولاد بؤساء كمانويل ونساء لم يبتسمنَ يومًا، في هذه المدينة يا سيّدي رجل يحمل بيده اليمنى قطعة خبزٍ وفي يده الأخرى كتاب لديانته، في هذه المدينة قطعٌ أثريّة تُشبه التّحف لكنّها أصبحتْ حجرًا أصمّ لأنّها فقدتْ لمعانها وبريقها الأزلي، في هذه المدينة لا يوجد الحبّ ولا يوجد الضّحك، لا توجد حريّةٌ في أيّ شيء.

ثم انفعل قائلا:

– ألا يحقّ للشّعوب أن تكون حرّة ومستقلة.

وكرّرها بصوت مدوّي في القاعة.

– ببساطة سيدي هذه المدينة التي أتكّلم عنها هي بلدي الجزائر، وهذه الصّخور الكبيرة الغاشمة هي بلدكم العظيم فرنسا.

آنذاك انتشَرَ صمت مهول في القاعة وخيّم على الحضور، كانت كلماته بمثابة عاصفة اللّوحة التي سبقتْ صمتهم، فلم يتوقّع الحضور أن يكون شجاعًا إلى هذا الحدّ حتّى يتكلّم عن أفكار الانفصاليّين، لاسيّما أنّه تفشّى هذا الفكر في الآونة الأخيرة وتبنّته أحزابٌ متطرّفة.

ظلّ الحضور خاشعًا وحدّقوا فيه مليًّا وتخافتوا بينهم بأنّه لا يشبه الشّيوعيين المتطرّفين، وأنّ اسمه العربي زياد لا يدلّ على ذلك، وبقي الحشد ينتظر إعلان اللّجنة عن قرارها النّهائي، لكنّ رئيسها فاجأ الجميع قائلا:

– نؤجّل لقب لوحة اللّوفر لأن أعضاء اللجنة لم تتوصّل إلى قرار مُعيّن.

وكان الحضور غير راض لهذا التأجيل، وانقسم الحشد إلى فوجين، منهم من رأى لوحة زياد هي الأجدر وغيرهم خالفهم في الرأي، وعَمَّ في القاعة غوغاء عارمة ممتزجة بكلمات الأوبرا الحزينة.

«أرجوكم تحلّوا بالهدوء واستمتعوا بهذه الليلة».

شعر جون بقشعريرة تهزّ بدنه وهو يسمع كلمات زياد في داخله لأول مرّة وتعجّب ممّا قاله عن الدّمار والخراب، وقارن ما قاله بمذكّرات جدّه، فاستبعد أن يكون هاربًا من مقصلة الحياة الماضية، أو أنّه تسلّل من أوراق نخرة، كانت وقع كلماته شديدة ولوحته

واقعا مُغيّبا، وهمس في داخله باحثا عن تفسير يُصمتُ به الفراغ الذي اتّسع فجأة:

«ماذا كان يقصد بذلك، أكان يعني أنّنا اقترفنا كلّ هذه الجرائم، لكن جدّي لم يذكر ذلك في مذكّراته، كان يتحدّث عن تعليم شعبٍ جاهلٍ، وإنقاذهم من الجوع والأوبئة المنتشرة هناك، طوال أشهر وأنا أطالعُ كلماته الّتي جعلتني شاردًا ومتسائلا عن حقيقة ما قاله زياد، أكُلُّ شيء قرأتُه كان مُزوّرا؟ لا أستطيعُ أن أتصوّر أنّ أبي وجدّي قتلة؟».

والتفتَ الحضور مقطّبين وخائفين إلى زياد، وهو يتجوّل بخطوات ثابتة واثقة فبادله بعضهم فرحة غريبة نوعا ما، لكنّه كان غير مبال بالهمسات التي تُلاحقه أينما حلّ في ركن من المعرض، واستغربوا لشجاعة هذا الرجل الذي تحدّى دولة بأسرها وهو الآن في أحد معالمها الأثرية يُكافح من أجل حرّية بلده وشعبه.

أمّا جون فقد أحَسَّ بألم في جمجمته من كثرة الأفكار الغزيرة التي يُقلّبها في رأسه واختلطتْ كلمات زياد بمذكّرات جده، والتصقتْ هذه اللّحظة بذهنه فلم يستطع تمييزها عن باقي لحظات حياته ولا نسيانها، وأصبحتْ عالقة كالعرجون القدي.

* * *

مازالت أصداء المعرض تتردّد في أذنيه، لم ينسَ الكلمات الّتي قالها زياد وكأنّها رغوة طافية فوق رأسه، تساءل حينها كيف رُسمت لوحة الصخور السرمدية؟ وكم استغرق في رسمها؟

كان لا يُصدق رسمها ولونيها الأبيض والأسود، بدتْ مُشابهة لرسومات المغارة ومرسومة بنفس الطريقة، وتشابهتْ معه الصّور

الكثيرة وبدا كأخرق يتخطّفه الموج، وودّ لو يُلاقي الرجل مرّة ثانية فيسأله عن مدينة جلفا وعن أهلها، لكنّ أمله خاب ودوائر قصّته اتّسعتْ أكثر فأكثر، فأجّل أمانيه وتفاءل بغد أفضل وأجمل.

وحين عودته توقّف جون على بُعدِ أقدامٍ من منزله لاحتساء كأس في إحدى مراقص محافظة دردونيه، فقد كان كثيرًا ما يقصده في ساعات متأخرة من اللّيل. كان لا يحبّ الجلوس مع نفسه في منزل خالٍ من الحياة، بيته الفرنسي البحت جامد وصامت من الخارج كأنَّ أهله غادروا منذ أمد بعيد، حينها جلس جون إلى طاولته المعتادة، وأمسك كأسه بشكل أفقي قرَّبه قليلا إلى عينيه لتكون شفتاه المستطيلتين داخل الكأس مُصدرا صوتا متقطّعا فالكؤوس المملوءة أفقدته نشوة الشُّرب، ولم ينتبه حتّى قاطعتْه لينا من الخلف بضحكتها المُعتادة:

– تبدو في أحسن حال.

– كيف عرفت أنّي هنا؟

– لقد كنتُ قبل قليل في منزلك ولم أجدْكَ هناك، ولأنَّ المسيح يُحبُّني فقد أرشدني بصدفه إلى سيارتك المتوقّفة هنا.

ثمّ أمسكتْ يده قائلة:

– منذ تلك الليلة وأنا لا أفكر إلَّا بك وبالكوابيس التي تُلاحقك.

– افتقدتُك كثيرا، لكنّي أخاف عليك من ذلك المتوحّش.

– أفزعتني يا جون، لا أظنّك تقصد لاندروا ذلك المُجرم الذي روّع الفرنسيين بجرائمه البشعة، كان يُوهم المرأة بحبّه لها ثم يقتلُها

ويحرقُها في الفرن، لقد تتبَّعتُ أخبار إعدامه في 1922 لحظة بلحظة، ولا أعرف لماذا، ربما كانتْ عقوبة الموت التي تتلقّاها الفتيات منه دون أن يُميزنَ حُبّه من بذاءته تُشعرني برغبة شديدة في أن أَتَتَبَّع أخباره.

– ربّما كان يحبُّ جمع قلوب الفتيات الجميلات مثلك.

– خطئي أنّي أردتُ أن أكون معك، والآن أنتَ تفزعني بذلك المعتوه، ولكني أؤمن كثيرًا بمقولة باكون «أنّ الهوى مهما كان ضعيفا يستطيع أن يُواجه، ويسيطر على الخوف من الموت»، وأنا لا أخشى الموت في سبيل أن أكون معك.

ابتهج حينها جون لكلماتها، ثم شرد للحظات وردَّ قائلا:

– كذلك الشعوربالحرية يمكنه التغلب على هذا الخوف.

– ماذا تقصد بهذا، لا أفهمك.

– كلمات فقط تُشبه التي قرأتُها في أحدى المجلاّت، وقرأتُ أيضًا أنَّ تمرُّدا حدث في مُقاطعتنا الفرنسية بالجزائر، وقد انتقلتْ العدوى إلى مناطق أخرى، ماذا يريد هؤلاء البربر المتوحشُّون منا؟

* * *

صفحة 42:

«كنت أمرّ صباحا على هؤلاء الصِّبيَة وأنا ذاهب إلى العمل، وهم مجتمعون في الخيمة كان صدى أصواتهم يرسل تضرّعات غريبة، تمتزج بأنفاس الصباح فتوجّسني وتخيفني، وخاصة عندما أتذكر ذلك الصبي الهوّاري، أتخيّله كل ليلة متنقّلا بسرعة خلف الصخور.

وهو يقفز محاولا تسلّق الجبل، كنتُ أناديه بأن يرجع لأنّه لا وجود لشيء خلف الوادي، كان في كل مرة يلتفتُ مبتسما دون أن ينطق بأي حرف، وهو يلتصق بإحدى الصخور ويُعانقها بشدة، لم أجد سبيلا لنسيان فعلتي تلك، كنت أهرب للشرب مبتعدًا عن صلواتهم الصادرة من الخيمة، كانت أشبه بلعنة هادئة تُحْكِم على رأسي المثقل بالغبار والتعب الشديد.

كنت ألاحظ ذلك الغموض الذي يتسرب لعروق الدّور القديمة المحيطة بهذا المبنى الغامض دار البارود[1]، لطالما شعرتُ أنّه يُمدُّهم بسحر أسطوري، يختبئ في صلابتهم وصمتهم الدائم، كنتُ قد شاهدتُ البئر الموجود في مدخله، كم هو مظلم وغريب، تأملتُه زمنا طويلا، تخيّلتُه نفقا وجسرا وهواجس كثيرة، وساعةَ أرقبُ ذلك الهدوء اللّيلي الذي يجتاحُ عتمة الشارع المؤدي إليه، أبحث عن هؤلاء البدو وأين يختفون ويجتمعون، أين يمارسون أحاديثهم وحياتهم، أتذكّر ذلك البئر ربّما كانوا ينزلون فيه ويفرغون كلّ سذاجتهم، وجفائهم في جوفه المعتوه.

أتذكّر أحيانًا ذلك الرّجل بجلّابيته وقلنسوته، وهو يتّبع أغنامه وكي يتجاهلني دائما ويرمقني بنظرات عدائية، كنت ألمس قسوته وهو يجرّ عصاه بعيدًا خلف الجبال الرّمليّة، راحلًا مدّةً طويلةً،

1- دار البارود: يعود هذا المعلم إلى عهد الأتراك، لتأتي فيما بعد فرنسا وتعيد بناءه وترميمه وفتح نفقين داخله، الأول باتجاه ثكنة «ابن عياد» حالياً، والنفق الثاني باتجاه الثكنة المتواجدة بالقرب من مركز البريد القديم، حيث كانت جيوش الاستعمار يدخرون أسلحتهم هناك ويحتوي هذا المعلم على 3 غرف ودرج للطابق الأعلى، و3 نقاط مراقبة كان يتواجد فيها الحُراس، كما يوجد في المعلم عند المدخل بئر يفوق 20 مترا.

لا يعود فيها لتلك الخيام والدّور القديمة، وأشْهَدُ أصدقائي يرحلون منها دون سبب، لقد بدؤوا ينقصون ويهربون من التّعاويذ الّتي تنتشر من البئر، لقد صار عددنا عشرين فرنسيًّا بعد ما كنا أربعة وخمسين، أتذكّر الأيّام الأولى لنا وحماسنا لتعمير هذه الأرض.

كان الضابط جيروم صديقي متحمّسا لتربية الأغنام والزّراعة، كان يقول لي دائمًا أن فرنسا منحتنا هذه الأرض لنكون ملوكًا فيها، لقد اشترى كثيرا من الأغنام والأبقار على حدّ قوله، وأحاط مزرعته بسور من الأشجار واختفى منعزلا خلفها مرّت عدة أيام على غيابه حتى فاجأني ذات مرة وأنا في مكان عملي عندها قال:

«لا أستطيع العيش مع هؤلاء البدو الذين ينهبوننا كلّ يوم، عددتُ أغنامي بعد عودتها من المرعى، لقد اختفتْ عشرة منها، وحينما سألت حاديها، أخبرني أنه لا يعرف ما حدث، وأكد لي أنه لم يعترضه أي أحد أثناء الطريق، أجبته محاولا إغضابه:

– ربما قد أخذهم الرب انتقاما منك.

– ماذا تقصد بذلك؟

– أنت لا تستطع خداع صديقك، من أين لك بهذا المال كلّه حتى تشتري الأغنام الأبقار والمزارع؟ أنا أعرف قصّة ذلك الرجل عبد الله جيّدا.

– أعرف أنّ لافارا أخبرك بذلك، لكنّي أؤكّد لك أنّه كاذب، وأنّكما تحسدانني على ما أنا فيه.

-لقد شرّدت عبد الله مع زوجته، بعدما نكّلتْ بك وصرختْ في وجهك أمام العسكر، أنت الآن تنعمُ في مزرعتهم وثروتهم، وهما الآن يختبئان في خيمتهم وراء الجبال، هل أنتَ مفتخر لأنّك أردتَ اغتصاب امرأة.

حينها ثارتْ ثورته، ودفعني بقوّة قائلا:

- تُدافع عن هذا البدويّ وتنسى قضيَّتك الفرنسيّة تبًّا لك.

لم تمرّ أيّامٌ حتّى رحل جيروم مُخلّفًا وراءه كلّ شيء، ودون أن يُكلّم أحد، اعتقدتُ حينها أنّ لعنة البئر قد نالتْ منه.

ربّما هي تعاقب كل من يقترب من مقدساتها، كان قد أخبرني لافار بقصة المرأة التي حاول اغتصابها جيدا وأن جيروم فُتن بسحرها وجمالها، وراح يرصدها ليلا ونهارًا حتّى يطفئ النار التي تكاد أن تحرقه كل ما رآها رفقة الأخريات في المزرعة يجنينَ المحصول.

وذات ليلة استغلّ فرصة مغادرة زوجها عبد الله إلى الصحراء واقتحم دارها، وما إن رأته حتى بدأت تلطّخ وجهها بالطين وتصرخ بشدة، دُهش جيروم من ردّة فعلها وفرّ خارجًا بعدما اجتمع الكلّ يرمونه بالسّبّ والشّتائم.

ومنذ تلك اللّيلة صار الكلّ يسخر منه، ومع مرور الليالي بدأ ينتقم منهما ويتبع خطواتهما أينما ذهبا، حتى فوجئنا به ذات مرة يقود مجموعة من الجنود مدّعيًا أنّ عبد الله يعمل لصالح منظمة سرية خارجة عن القانون، تسعى لزعزعة حكومتنا فرنسا.

وما إن وصل إلى المزرعة حتّى كان عبد الله وزوجته قد هربا إلى الصّحراء بعدها استولى على كلّ أملاكهما، وها هو الآن يدَّعي أنه اشترى تلك الأغنام والأبقار والمزرعة.

كنت متأكدا أن المعلومات التي تفزعنا كل ليلة، آتية من ذلك البئر الأسطوري أعتقد أنهم أقاموا في هذه الأرض بعدما اكتشفوا أنّها تحرسهم وتؤمّنهم، كنتُ أحاول اعتزالهم حتّى أتفادى لعنة البئر الّتي لا تغادر تفكيري، لكنّي عندما أتذكّر صديقي جيروم واستيلاءه على المزرعة، أسخر من نفسي قائلا:

«لقد سكنّا كلّ هذه الأرض التي ليست ملكنا ونؤنّبه على قطعة منها».

* * *

في صباح اليوم الموالي اتّجه جون إلى دار نشر غاليمار لزيارة صديقه الذي يعمل هناك في المكتبة، فكَّر في أن يطلب من صديقه أوكتافيوا أن يزوّده ولو بورقة واحدة تخبره عن تلك الحلقة الضائعة، فقد اتّسعتْ في ذهنه كثيرٌ من الأسئلة.

«كيف مات جدّه؟»... وماذا حدث لذلك الإرهابي بوشندوقه وأصدقائه الأشباح؟».

كان يأمل أن يجد في هذه المكتبة مُبتغاه، فقد أخبره أوكتافيوا أنّها تحتوي على الكثير من المجلات الجزائرية، وجرائد قديمة تحكي عن القرن الماضي، وآنذاك جلس جون ينتظر بعدما أخبره العامل هناك أن صديقه لم يأت بعد، وأنَّ عليه الانتظار، وبدل أن يقعدَ كأرض بور تجوّل بين تلك الرّفوف الكثيرة آملا في أن يجد شيئا.

لكنّ تلك العناوين الكثيرة جعلتْ الأمر مستحيلًا بالنّسبة إليه، علاوة على ذلك فقد كانت العناوين بعيدة عن مُراده الذي يصبو إليه، ومشى بين عناوينها بخطوات واثقة بطيئة، وقلّبَ بين أصابعه كتب:

أندريه مالرو وأنطوان دوسان.

أكزوبيري.

جان جيونو.

جان بول سارتر، ثم شدَّه ديوان شعري للويس أراغون، فتصفَّحه بشراهة وخاصة أنّ كلماته ذكَّرته بصديقته لينا، وافتتح قراءته بقصيدة عيون إليزا.

عيناك من شدّة عمقهما رأيت فيهما، وأنا أنحني أشرب كل الشموع تنعكس كل اليائسين يلقون فيها بأنفسهم حتّى الموت.

عيناك من شدة عمقهما... أنّي أضعت فيهما ذاكرتي.

في ظل الطيور يوجد المحيط المضطرب.

ثم فجأة يشرق الطقس الجميل وتتغير عيناك.

الصيف يطوّق الطبقة العارية بمئزر الملائكة.

السماء لم تكن أبدا زرقاء كما هي فوق القمح.

***

الرياح تذرو بلا طائل أحزان الزرقة

عيناك أكثر صفاء منها عندما تتألق فيهما دمعة

عيناك تجعل السماء التي تعقب المطر غيورة

الزجاج لا يكون أشدّ زرقة إلا عند تحطمه.

«مهلا يا صديقي الشاعر».

هكذا قاطع أوكتافيو جون وأردفَ قائلا:

– أظـنُّ أن هـذه القصيـدة ليسـت مـن اهتمامـك منـذ متـى أصبحتَ عاشقا؟

فردّ جون مبتسما بخبث:

– علّني صرتُ كذلك، فالزّمن لا يتركُ القلب ساكنًا، وقد يُجريه كسيل جارف حينما يُريد ذلك.

وحيّى أوكتافيوا صديقه بحرارة وسأله عن أحواله وأوضاعه، وتبادلا أطراف الحديث وقد حنّوا للأيّام الخوالي، بعدها ذكّره بتلك الجرائد وألّح في طلبه أن يقرأها كلّها، وقد أخبره ذلك السرّ الدفين عن المذكّرات القديمة، وعن أخبار المدينة وعن ساكنيها، فجاوبه أوكتافيوا وشفى غليله وقبل ذلك أوصاه بالسرّ والكتمان.

– أريد أن أُطلعك على غرفة محظورة في زمن مضى، فهي تحتوي على مقالات وجرائد كثيرة مُنعتْ من النّشر في عهد سابق وهي حقا تتكلّم عن الجزائر، وسأتركك هناك زمنا قصيرًا حتّى تنال مُرادك، ولكن أرجوك لا تُخبر أحدًا بذلك.

وراح جون يُفتّش كومة الجرائد المتراكمة، الّتي كانتْ مرتّبة حسب الحقب الزمنية.

إحدى الرّفوف كان بعنوان «منطقة الصحراء بين 1800-1900»، فعرفَ أنّ مبتغاه قد اقترب والفراغ الذي في داخله بدأ يتضاءل، ومرّ الوقت عليه أعوامًا وسنين قبل أن يلمس تلك الأوراق النّخرة علّه يُنهي حكاية ذلك الغبار المستطير، وتذكّر خبرًا يقينًا عن الصّحراء الّتي كان يجُوبها الأهالي هناك، ويرعونُ فيها أغنامهم.

فعاوده صوتُ النّاموس وحرَّضه على المُضيّ قُدُمًا، فلهث جاريا كصبيّ أصابه الدُوار وأحاطتْه العتمة والضياع، وأقبل غير مُدبر يقرأ اليقين كما أحسّه أوّل مرّة فشدّه في بادئ الأمر عنوان قابلَ ناظريه، فانتشله كالمجنون وراح يتفحّصُه.

«مطمورة 16»:

«في 15 أفريل 1861 قاد الطيب بوشندوقة هجوما برفقة مجموعة من المتمرّدين على البرج المقام بمدينة الجلفة التي كانت منطقة عسكريّة، حيث قتلوا مجموعة من الفرنسيين ولاذوا بالفرار فتبعهم الجيش الفرنسي، وتمَّ إلقاء القبض عليهم، وأقام لهم القائد دي سوني محاكمة عسكريّة مستعجلة قرّرتْ إعدامهم صبيحة 19 أفريل، لكنّ الواقع يقول أنهم لم يُعدموا وأنّهم دفنوا أحياء بمطمورة 16، بطريقة شنيعة وفظيعة لم يعتدها التاريخ قبل».

كان جون في حالة هيسترية بين هذه الجرائم المُقرفة التي تزداد اشمئزازا كلما زاد في البحث، لكنّ سؤالا من تساؤلاته الكثيرة قد أصبح له جواب وتضاءل في داخله فلقد عرف مصير ذلك الرجل بوشندوقه، فقد دُفن حيًّا ودُفن معه الشبح الذي طالما ضايق

الفرنسيين في منازلهم ومضاجع نومهم، وسلب منهم راحة المُجرمين القتلة بعد كل ثورة يقودها ضدّهم، وأنَّ الأشباح لا تموت ولا تُعدم فلقد أسروها بعيدا عن أنوار القمر الساطعة خوفا من أن يعرف الصغار رائحة جُثّته فيُسكنُوها في دواخلهم دون أن يتنفّسوا شيئا آخر غير الحرية.

وحينها واصل بحثه دون توقُّف آملا أن يجد ورقة نخرة تعيده إلى ليلة مولده ونقطة البداية، وحثّ أصابعه المتقلّبة بين المآسي الكثيرة على الحركة، وأيقظها من جموحها وسكونها، لقد كانتْ مزرية ومخيّبة بالنسبة له تلك الأرقام والكلمات والعناوين.

فقد كانت تدين بلده ومجتمعه وكنهه وماضٍ فرنسيٍّ رضعَ منه كل فترات حياته.

لم يصدّق حينها كل تلك الشعارات الجميلة التي عاشها من مساواة، وحرية وإنسانية التي لخّصتها أوراق نخرة، لكن جون كان لا يهمّه سوى أن يتحرّر من الكابوس الذي قضّ مضجعه وحوّله إلى إنسان آخر.

وبينما هو منهمك وسط الأوراق الكثيرة. رفع رأسه بنظراته قليلا، ووسط ذلك الصمت المهول وقعتْ عينه على جريدة قديمة في أقصى زاوية خُيّل له فيها أنَّ اسم جده مكتوب في أعلاها، فحبا إليها كطفل رضيع مندهشًا متعطّشًا ليتأكّد من ذلك، وانتشلها من مكانها نافد الصّبر حتّى يقرأها فيُبصر اليقين.

«صخرة تقتل الضابط الفرنسي ميشال بمدينة جلفا»

«تعود أحداث القصة سنة 1852، حيث أن صخرة كانت بأعلى الجبل الكائن للمخرج الشمالي لمدينة جلفا، وهذا هو المكان الذي يلجأ إليه الجزائريون للعمل في تكسير الصخور، ونزع الحجارة من الجبل لاستغلالها في عمليات البناء حيث حدث أن سقطت حجرة من أعلى الجبل، فقتلت أحد الضباط الفرنسيين يدعى ميشال على الفور، حيث حكموا عليها بالإعدام أولًا، وخفّف عليها الحكم بمعاقبتها بالأسر لمدة 35 سنة انتقامًا لما حدث للجنديّ الفرنسيّ.

حيث تمّ تقييدها بالأغلال ووضع أوتاد محيطة بها لكي يتم معاقبتها كلّ سنة مع تزامن تاريخ، وموعد الحادثة حيث يقوم الجنود الفرنسيّون بإطلاق النار عليها لما تسبّبت فيه من جور، ولعلّ هذا الحكم الذي طُبّق على الجماد تنبيه وتحذير لكل الجزائريين أنَّ العدالة مطبقة على الجميع دون استثناء».

حينها استند جون إلى الجدار، وقد أصابه التّيه والضّياع واتّسعتْ حوله الدوائر أكثر فأكثر، وراح يُخاطبُ جدّه هامسًا في داخله:

«لقد عهدتُك يا جدّي صلبًا وشامخًا جائرًا بسوطك على أولئك الضّعفاء، لقد عهدتُك وأنتَ تقتل ذلك الولد الهواري وترسل دموعه الخضراء وتشتّت لحظاته البائسة لقد عهدتُك وأنت تفرغُ في الصخور كل أحقادك وعنصريتك، لقد قتلتْك يا جدّي لأنّها جامدة لا تشعر بنظراتك المتسلّطة، لا تشعر بعبوّات رصاصك ولا ضربات سوطك».

مرّتْ الأيّام على قراءة جون للجريدة، ومعرفته حقيقة الجرائم المشؤومة. لبثَ في منزله مُنعزلا عن الآخرين، يُعاود قراءة حكاية

الكتاب ذي الغلاف الخشن، كان كلّ ما يهمُّه خبر مدينة جلفا الّتي لم يستطع نسيانها أبدًا، حتّى لقاؤه مع لينا في ليلة مضتْ أصبح مختلفا.

كان يُردّد كلمات كثيرة تبعثُ على الحزن، والألم وكأنَّ في داخله إنسانا آخر يُوشك أن يخرج إلى الحياة ليبادله كلّ وساوسه وهواجسه، ودّ حينها أن يكون إنسانًا فقط دون ألقاب ودون انتماءات.

لا فرنسيا ولا مسيحيا ولا شيوعيا، أصبح مُتكتّما صامتًا طوال الوقت انطوائيا على نفسه، يُمضي ساعاتٍ طوالٍ على شرفة منزله متأمّلا. وفي ذلك الوقت تلقّى جون رسالة من منزل عمّته كلارا، كانتْ الرّسالة تُخبره أنَّ عمته مريضة جدًّا وأنّها تريد رؤيته والتّكلم معه، وحينها حزن لذلك الخبر المؤسف، وتذكّر طيفها المبتسم كانتْ عمّته كلارا الأخت المقرّبة لأبيه بحكم أنّها عاشتْ معه فترة طويلة في الجزائر.

فقد كانتْ صندوق أسراره وجليسته الدّائمة، كيف لا وهي التي رحلتْ عن فرنسا خفيةً عن والدتها مُتّجهة إلى الجزائر لتُقرّر المكوث معه في مدنية جلفا. وآنذاك اتّجه جون إلى منزل عمّته بوجه شاحب وقلق باخعًا نفسه، وقد ندم ندمًا شديدًا لإهماله لها خاصّة وهي التي جعلتْه أكثر من ابن في سنوات مضتْ، ولمّا وقبَ غُرفتَها حضنَها بشدّة وترجّاها أن تغفرَ له جفاءه وقطيعته، فهوّنتْ عليه وسألتْه عن أخباره كلّها، وعندئذ أخبرتْه بحكاية قديمة طالبةً منه أن يُصغيَ لها ويُسامحها على أسرار دفينة كانتْ تُضمرها مذ أمد بعيد:

«رغم عائلتنا العسكرية إلا أن أباك كان من رجال اللّيل، يرتاد الحانات ويُثقل في الشّرب، شأنه ككلّ سكّير لا يُبالي بدروب الحياة

وعنائها، والحقّ أنّه كان مجحفًا في حقّ عائلته وحقّ حياته، عاش في فرنسا رغم إصرار والدي ميشال كي يَقدم للجزائر، لكنَّ شيئا ما أقنعه وحزَّ في صدره جعله يفعل ذلك، راح حينها يجول مدينة جلفا في ليله ونهاره وفي يقظته وسكره، وكان كثيرا ما يُجالس أبي على تلك الطاولة المستديرة في المحجر، وأظنّه شاهد الكثير من المواقف المخزية وقسوة أبي مع العمّال هناك، فكان يُراجُعه في ذلك طالبا منه أن يُعاملهم جيّدا حينها كان يُجيبُه بغضب شديد قائلا:

«تعلَّم كيف تعامل هؤلاء القوم كي لا تفقد فرنسيّتك»، لكنه لم يكن يرى بُدًّا من ذلك لأنه كان يراهم أناسا طيّبن وهادئين ولا يشكّلون أي خطر، كان يقول لي «نحن في بلدهم ونحتَّل حياتهم والأغرب أنّنا نصفهم بالإرهابيين».

كانت أغلب تصرفاته مُزاحًا وسخريةً، سكن المدينة وأحبَّ أحاديثهم وسهراتهم وكان يُمازح أطفالهم وكثيرًا ما أمضى وقته في البستان القريب من المدينة الذي كان ملكًا لجدّك، كنتُ دائمًا أظنُّ أنّ ذلك المكان مصدرٌ لتفكيره المخالف لفرنسيتنا وقناعاتنا.

فكلّما عاد منه سمعتُ أشياء عن الحريّة والظلم وأشياء تطعنُ في بلدنا، فأخبّأ ذلك عن أبي خوفًا عليه منه، وهناك في ذلك المكان التقى بفتاة اسمها مريم كانتْ تعمل مع فتيات كثيرات في جني الثّمار، فأُعجب بها وطار عقله حينما رآها وصار يُلاحقها ويختلسُ النّظرات كلّما مرّ منها آملا أن تُكلّمه، لكنّها في كلّ مرة تردّه خائبًا ممتلئًا بكثير من الشتائم والكلمات الغاضبة.

كان يُحبّها كثيرًا ويُصدّق كل شتائمها لنا دون أن يُفكّر أو يُعيد النظر، يراها مُختلفة عن النساء اللواتي اعتاد أن يُغريهنَ بحديثه، فقد كانتْ خجولة ترسلُ نظراتها للأرض حينما تُكلّمُه، وصلبة صلابة الأرض عندما يعترضها أبوك أو يتكلّم أحد عن بلدها بسوء، وكثيرًا ما تدخلُ معه في نقاشات حادّة تجعله هستيريًّا غاضبًا طوال اليوم.

لكنَّ الكلام الّذي كانتْ تسمعه عنه من الفتيات الأخريات وأنّه لا يُشبهنا ولا يُوافق تفكيرنا، وأنه يتعامل مع سكان المنطقة بلطف وتواضع جعلها أقل قسوة عليه.

فكانا يقتربان من بعضهما لحظة بلحظة، يعيشان في عالم يجمعهما معًا بعيدًا عن اختلافاتهما الكثيرة، لقد أحبَّها كثيرا لدرجة أنه كان يتخاصم مع أبي، ويرفض تعامله مع أولئك الناس بقسوة وتسلّط.

كانتْ تلك العلاقة الغريبة تكتملُ ملامحها مع مرور الليالي المسرعة حتّى فُوجئنا بقراره ذات مساء وقد أخبرَ أبي ميشال أنّه يريدها زوجة له.

واجهه أبي حينها بصفعة مُنكرًا ذلك بشدّة، فخرج ولم يعد إليه مُجددًا، وفي عينيه تصميم وإصرار على ذلك، كانت مريم في بادئ الأمر ترفضه بشدّة قائلة له:

«لن أتزوج رجلا يعيش بين أناس قتلوا أبي واحتلّوا وطني».

لكنه كان يُجيبها متوسّلا أنه لا يعرفنا وليس منَّا، كنت أقول أنَّ هذه الفتاة بدّلتْ كلّ مبادئه، حتّى أنا صار يُشاجرني من أجلها، لقد تزوّجها وصرتُ لا أراه بيننا نحن الفرنسيين، كان يعيش حياتهم من أجلها، ويُعادي الجنود الفرنسيين كلّما واجههم في طريقه.

لكنّهم لا يبادلونه ذلك فقد كانتْ توصياتُ أبي واضحة بشأنه، وأنّه في حالة نفسية شديدة وعلينا تجاهله، ومع مرور تلك الأشهر الخياليّة بالنّسبة لي أتاني أبوك مُسرعًا مُبتهجًا وأخبرني بتكتّم أنّ مريم أنجبتْ صبيًّا، فخفتُ كثيرا حينها من غضب أبي وأخبرتُه أن يُكتم الخبر، لكنّ الخبر تسرّب في المدينة وأصبح الأهالي يلوكونه، فكانوا يقولون أنَّ الفتاة باعت وطنها من أجل رجل إفرنجيّ، أمّا الفرنسيُّون فيشيعون عن خيانته قصصًا وأكاذيب ويتفنَّنون في سردها.

كان ذلك الصّبي الصغير نقطة لتشتّت كلّ الخلافات العالقة بينهما، وسعادة لا توصف في حياتهما، لكن مريم لم تنس شيئا من قضيّتها الوطنية، فلقد كانتْ تتسلّل خارج المنزل في أوقات متأخّرة من الليل كما أخبرني عنها أبوك قائلا:

«كانتْ تفعل ذلك بتكتّم وسريّة عني لكني كنتُ أراقبها عن كثب دون أن أظهر لها أي شيء، وازدادتُ حركاتها المريبة عندما شاع اعتقال مجموعة من المتمرّدين الذين كانوا يُعادون سلطتنا ويحاربونها بشتّى الوسائل، وحينها تبعتُها إلى خارج المدينة، فتصلّبتْ هناك واقفة ساعة من الزمن، وفجأة ظهرَ نساء أخريات بلباسهن الأبيض المعتاد.

ودون أن ينبسوا بكلمة واحدة أخرجتْ مريم من قفَّتها قصاصات مطوية وفرَّقتْها بينهنَّ، اندهشتُ لذلك وتساءلتُ عن تلك الفتيات، وماذا يفعلن في ساعةٍ متأخّرة من الليل، وماذا يوجد في القصاصات؟ فواجهتُها ذات ليلة وسألتُها عن تصرّفاتها التي أصبحتْ غامضة نوعًا ما.

فأجابتني قائلة:

«أنا لم أُرغمك أن تحبَّ فتاة بدويّة مثلي».

حينها أجبتُها قائلا .

«أنا لا أعارض ما تفعلينه، ولكنّي خائف عليك ومن عنادك الدائم، أنا أعرفُ كل شيء عن قصّة تسلُّلك وصمتك، فلقد شاهدتُك وأنت تُوزّعين القصاصات في ساعات متأخرة من الليل، أنا لا يهمّني ما كانتْ تحتويه، لكنّي أحبك كثيرا ولا أريد أن أفقدك».

وحينها وقفتْ متصلّبة لما قاله، ثم انتفضتْ وفي عينها بقايا دموع قديمة صارخة: «أنتَ لا تعرف عن عائلتي أدنى شيء».

حينها أجبتُها بهدوء: «لا».

– قُتل أبي رميًا بالرّصاص وهو يُدافع عن قطعة أرض صغيرة كنَّا نسكُنها ونزرعُها، سلبونا كلّ شيء نملكه وطردونا، شُرّدتْ عائلتي فكنّا ننتقلُ هنا وهناك وكأنّنا غرباء في بلدنا، ولم تجفَّ دموعنا على أبي حتى سُجن أخي لأنه دافع عن نفسه وردّ صفعة ذلك الجندي الفرنسي، وأبرحه ضربا ومنذ تلك اللحظة من اعتقال أخي عشنا أنا وأمي عالمًا مُرعبًا ولحظاتٍ قاسية، أتصدّق أني أعيش معك مُتناسية كلّ هذا؟

وكنتُ قد سمعتُ من أبي ميشال وهو يتحدّث مع أصدقائه عن وجود منظمة سريّة تتحرك في الخفاء، تذكّرتُ حينها أخي وزوجته مريم فارتعدتْ فريصتي رعبًا وأسرعتُ لأخي وأخبرتُه بذلك لكنّه كان يطمئنُني بأنّه لاعلاقة لنا بهم، وأنّنا لسنا المقصودين بحديثهم.

وكان اليوم الموالي أسود في كلّ دقائقه، بعدما خرج أخي للمدينة مُصطحبا ولده الصغير، كانتْ تلك الخفافيش المظلمة تترصّد بمنزلهما وتنتظر خروج مريم، كان ذلك الخبر فاجعة وجنونيّا بالنسبة لأخي فبعد عودته وجدَ حبيبته مريم مقتولة بطلقات ناريّة أمام ذهول الأهالي وحشد كبير.

لم يصدّق ما جرى لمريم وانتابه غضب شديد وصعقة جنونيّة، فحمل مسدسه وتوجّه لأبي ميشال علّه يُطفئ النّيران التي تلتهم داخله، وتجعلُ صُورها الحزينة أكثر لطفًا على قلبه لكنّه لم يجده حينها في كلّ الأمكنة التي كان يقصدها، وحالما هدأ قليلا كان قد مرض، وأُصيب بأزمة نفسيّة جعلتْنا نعود به إلى فرنسا رفقة ذلك الصبي الذي كان لا يُفارق يديه، تألمتُ كثيرا لحال تلك الفتاة مريم ولحال أخي.

مرّتْ سنين طويلة وأنا أُصارع سرًّا يخنقني في داخلي ويُضيق على نفسي، والآن أريد أن يسامحني المسيح على كتماني لذلك، أريد أن أخبرك يا بنيّ أنَّ تلك الفتاة مريم هي أمّك، وأنّ ذاك الصّبي الذي حكيتُ عنه هو أنتَ.

* * *

وبعد مرور وقت طويل على موت عمّته كلارا حزم جون حقائبه فلقد قرّر أخيرًا الرحيل إلى الجزائر علاوة على ذلك فقد أكمل كل تحضيراته، وطلب إجازة من ذلك الكهف الخيالي مكان عمله هناك، ولم يفته توديعُ أصدقائه هناك...الغزلان والبيزون وليكورن وكلّ الحيوانات البرتقالية، كان يمرّر يديه على كل الصّخور ببطء شديد، وكأنّه يقول هي الوحيدة التي لم تخنّي في هذا الوطن.

واصطحب معه لينا التي أصرّتْ على مُرافقته كي ترى مُقاطعة الجزائر، وقابَله ذلك الكتاب ذي الغلاف الخشن، وقد طفا على الطّاولة، ففكّر أن يتركه لكنّه تراجع عن ذلك حينما تذكّر الغُبار المستطير، وآنذاك أمسك جون مذكّرات جده وقابلها اتجاه عينيه المتصلّبتين، كان متلهّفا لتفتيشها مُجددًّا، لا سيّما وهو عائد لمدينته القديمة، فكانتْ أصابعه تتحرّك صعودا ونزولا مُلامسة غلافها الخشن.

في الوقت نفسه كانت لينا تُحدّثه عن طفولتها الشقيّة، وكيف أنّها كانتْ تسترقُ النّظر لأولئك النّاس المجتمعين في الكنيسة، وتتعجّب من إغماض عيونهم حينما يبدأ ذلك العجوز بالكلام بصدًى عال، ظانّة أنّ الرّب سيأتي حالما ينتهون من صلاتهم هذه، وحالما يُغادر الحشد، تتجوّل باحثة عنه بين الكراسي الخشبية وفي الطاولة المملوءة بالشموع، كانتْ أول مرّة تكتشفُ معنى هذه الكلمة التي تكرّرتْ كل ما مرّت بالكنيسة، ثمّ التفتتْ إلى جون مبتسمة وهي تقول:

– كنتُ صغيرة على أن أعرف أن الربّ أقرب إلى أرواحنا وأنّه لا يأتي عندما كنتُ أنتظره كلّ يوم بعد فراغ النّاس من صلاتهم.

لكنّ جون كان غارقا في كتابات جدّه:

الصفحة 60:

«دعاني سيمون وأخبرني أنّ عليّ الحضور هذا المساء إلى المكتب لأمر جلل ولم يخبرني الجندي، فقد كان كتوما ويخفي أمرا ما، ولم أفهم سبب دعوته لي، فلم يكن يربطني به شيء وعلاوة على ذلك فقد كان

طارئا جديدا على المدينة، لقد أرسله مكتب العاصمة حينما سمعوا أنّ الأوضاع هنا بدأت تنفلت.

والحقّ أنّ الجنود هنا قد سئموا هذا المكان، ولم يستطيعوا أن يألفوا شوارع المدينة وغموض سكّانها، كنت حينها أفكّر في حدث أزعجني، وحوّلني إلى كائن أخرق رومانسي كما هو حال القصص الغابرة.

ودعوته هذه لي لم تكن في وقتها أبدا، فلستُ مستعدّا لأن أبرّر له أيّ شيء وخاصّة ما حدث معي الأيام الخوالي في المحجر، صرت لا أطيق ذلك المكان الملعون، والحقّ أنّ تلك القصّة كانت تبدو لي غبيّة وبربريّة نوعًا ما.

فحينما كنتُ مارّا من طريق المحجر قرب الحقول، كان الشفق الأحمر يملأ الأركان ويضيء ذلك الفراغ الشاسع، راح يتوغّل في الأرض بألوان آسرة متمايزة، وهنالك كنتُ أسمع صيحات الفلاّحين تتعالى، وأصغيت إلى ذلك الصوت الرجوليّ المبحوح وهو يصرخ في وجه عمّاله ويأمرهم بالإسراع، كان كصوت مغنّي أحببته كثيرا في صغري، شعرتُ حينها أنّ هذه الأرض عانقتني وألقَت بأسرارها في داخلي، فاتّسع الأفق من حولي وتضاءل ذلك الألم في داخلي وأُنيرت لي الطريق وكأنّي أُلاحق حلمًا جميلا.

وتأسّفتُ لحال هؤلاء البربر الحمقى الذين لا يفقهون أسرار النّور الذي يتجلّى بين الفينة والأخرى، وبينما أنا مستغرق في ذلك صادفتُ مَلَكًا واقفًا، كان بهيَّ الطلعة وآسرا، أقصد أنّي التقيتُ تلك

المرأة البربريّة التي فتكت بي بعينيها العسليتين، لم أشاهد قبلها في مثل سحرها، فتسمّرتُ أمامها كالشمع المحترق، ولم أتكلّم حينها بل انقطعت أنفاسي وتلعثم لساني وصرتُ كالأبله.

وحدّثتُ نفسي متردّدا في أنّها ربّما تكون جنيّة أو وهمًا مثل تلك الحكايات التي يردّدها الأهالي في المقهى، واستمرّت في النظر لي دون أن تنبس بكلمة واحدة ووقفتُ أقابلها مصطنعا رقّة وحبّا مجنونًا، وحدّثتُ نفسي أن تكون لذيذة في العناق ورائعة.

لكنّي انتهيتُ عن ذلك حينما غادرتْ مسرعة، وتركتني كالغصن الذابل، كنتُ لأوّل مرّة أقع في هذا السحر الملائكي، ومذ لحظتَها وهي لا تغادرني ولا تتركني أرتاح من عبء ذلك المحجر، ساعات أراها في يقظتي ماثلة أمامي توّد قول أشياء كثيرة، وسرعان ما يختمر سرابها مع غبار المحجر فأصبح عابسا طوال اليوم ولمّا أخبرت أحد أصدقائي بالقصّة، وتعمّدت فيها أن لا يكشف أنّها حدثت معي كي لا يستهزئ بي، وكان عريفًا بهذه القصص، وحينها كلّمتُه بابتسامة محاولا منّي أن أجعل الموضوع هيّنا.

– لقد أخبرني أحد العسكر المقرّبين منّي البارحة بقصّة غريبة، وقال أنّه حينا كان يمشي ناحيّة الحقول، صادف فتاة غريبة، ووصفها بأنّها كانت تشبه الملائكة وثرثر كثيرا في وصفها والتغزّل بها، حتّى أنّها صارت تظهر له في يقظته ونومه.

– ربّما هي من الأهالي، فهنّ قليلا ما يكشفنَ عن وجوههنّ، وقد سمعتُ عن حسنهنَ الكثير من القصص.

حينها أصررتُ عليه وأكثرت في وصفها حتّى كاد يُكشف أمري، فأجابني مستغربا.

أشعر أنّك كنتَ معه أو ما شابه، هل صحيح أنّه وصفها بكلّ هذه الدّقة؟

نعم وأكثر من ذلك، وقد زرتُه البارحة فوجدتُه طريح الفراش وكأنّ مرضًا أصابه، وقد أردتُ أن أساعده وأن أقتّص أثر تلك الفتاة.

لن تستطيع ذلك، فنساء هذه المدينة لا يكشفون وجوههنّ، وعلاوة على ذلك هنّ لا يغادرْنَ منازلهنَّ إلا قليلا.

أستطيع فعل ذلك بطريقة واحدة فقط.

حينها ابتسم صديقي بخبث وأردف متسائلا:

كيف ذلك؟

سأقود دوريّة لتفتيش المنازل وسأحاول إيجادها، حينها أستطيع مساعدة ذلك المسكين الذي يصارع المرض، أشعر أنّ الفتاة قد رمتْه بلعنة أو سلّطتْ عليه شيطانا ما.

سأجزم لك أنّك لن تجدها، فمرّة حينما كان لافار يفتّش منازل المدينة، وأراد حينها رؤية النّساء ونزع الغطاء الذي يضعنَه، هاجمه الرجال وانتشرت فوضى في المكان، وكان ذلك يحدث في كلّ مرّة يريد الجنود رؤية النساء وقد سئم الجنود من ذلك وصاروا لا يفعلون ذلك.

وماذا إن فعلتُ ذلك ولم أجدها، حينها سيهلك صديقنا ولن نستطيع مساعدته.

حتّى وإن وجدتَها وعرفتَها، ما الذي ستفعلُه؟ هل ستضع الأغلال في يديها وتسجنها، سيعارضونك في المكتب هناك، وستصبح سخريّة للنّاس، من الأفضل أن تنسى الأمر نهائيا.

شعرتُ حينها أنّ صديقي هذا لا يفقه شيئا ممّا أقول، فقد كان جلُّ كلامه عن ردود فعل المكتب والطارئ الجديد سيمون، لقد كان جبانا وأحمقًا طوال حديثنا والغريب أنّه بدأ يثرثر بالخرافات التي تتكرّر كثيرًا في أفواه العسكر، فلقد سكت لحظة شاردًا ثمّ قال:

أتعرف أنّ هذه المدينة تسكنها الأشباح، أعرف ذلك منذ القديم والكلّ يكتمون ما أقوله في صدورهم، ما معنى أن تُصادفَه تلك الفتاة التي تشبه الملائكة، ثمّ لا تتكلّم معه ولا يُكلّمها، فيسقط طريح الفراش، أليس هذا أمرا غريبا؟

ربّما يكون قد أحبّها لذا لم يستطع أن يتكلّم حينها.

قلتُ ذلك محاولا أن أعرف منه المزيد، فقد كان يُخالط الأهالي والجنود وله نظرة ثاقبة في الأمور التي تحدُثْ، حينها نظر إليّ وكأنّ على رأسه الطير ثمّ همس في أذني قائلا:

– تلك الفتاة ليست حقيقة، تلك كرامة ولعنة قد حلّتْ بصديقك، فاكتم الأمر وانصح صديقك بالرحيل حتّى تغادره هذه اللّعنة، لقد أخبرني بهذا ذلك الحاكي الذي يجلس دائمًا في مقهى المدينة، وأنا أعرف الكثير عن ذلك فتوخّ الحذر ولا تُخالط أولئك الأهالي.

لم أستطع تمالك نفسي وانفجرتُ ضاحكًا في وجهه، ثمّ خاطبته كي أخفّف من خوفه المبالغ فيه:

– حتّى أنت أصابتك تلك العدوى، وانتقل إليك ذلك الوهم، لطالما ظننتك رجلا ذا عقل وذا نظرةٍ ثاقبة، وها أنت الآن تُعيد لي ما يقوله العسكر ليلا نهارا.

– أنتَ لا تعرفُ شيئا عن المدينة، وعن الأشباح التي تتسلّل من «دار البارود» فلا تتفوّه بأشياء تجعلك نادما بعدها.

وبعدها ازداد إصراري أن أجد تلك الفتاة التي ابتلعتها الأرض، ولبثتُ أيّاما رائحا غاديا في المكان الذي شاهدتُها فيه لكن دون جدوى، وهممتُ أن أُفتّش الديار والخيام لكّني تراجعتُ عن ذلك لأنّ ذلك سيتطلّب وقتا طويلا وسأضيّع المحجر وعملي، وأملتُ أن ألتقي بها مجدّدا وحينها سأبيّن لصديقي أنّها كانت حقيقة، وأنّه لا وجود للأشباح في المدينة، وسأُصمِتُ أولئك الحمقى الخائفين.

وعندما زرتُ المكتب في المساء، قابلتُ «سيمون» الرجل الجديد على المدينة، بدا لي متذمّرا وجدّيا أكثر من اللاّزم، كان رجلا ضخما وخيشومه كبير جدّا، أمّا عيناه فقد كانتا ثاقبتين.

ومذ اللّحظة الأولى التّي دخلتُ فيها مكتبه لم يبتسم قط، وظلّ خاشعًا عبوسا وكأنّ أمرا جللا حدث، وبعدها حكى لي عن سبب طرده من مكتب الجزائر وإرساله هنا لمدينة جلفا، وأخبرني أنّ هناك خونة في الحكومة، كانوا متواطئين مع أياد دخيلةٍ تسعى لزعزعة الاستقرار في مقاطعتنا «الجزائر»، وأخبرني بأنّه كشف أمرهم لذا أرسلوه إلى هذه القفار البعيدة، استغربت الموضوع وتفاعلتُ معه.

أتقصدُ أنّ ضبّاطنا متواطئون مع جهات أخرى خارجة عن القانون؟

لا أعني ذلك بالتحديد، لكنّ تصرفاتهم التي كنتُ أرصدها، كانت تشير إلى وجود خيانة ما.

كنتُ أحدّق إلى ملامحه العابسة وهو يتكلّم، بدا لي رجلا مخبولا ومهلوسا واستنتجتُ ذلك من حديثه المتضارب، فقد كان يقول كلامًا ثمّ ينفيه بعدها بزمن قصير، وكان يثرثر عن الفاشية وعن المنظّمات السريّة التي تعمل في الخفاء، وأنّ التمرّد الحادث في «الجزائر» هنا نابع منها، وأرجأ سبب دعوته لي قائلا:

يجب أن نتكاتف للقضاء على المتمرّدين هنا، فقد وصلني خبر يقين أنّ امتداد الخيانة قد وصل إلى مدينتنا منذ أشهر، وأنا أخشى أن لا نستطيع السيطرة عليها.

ابتسمتُ حينها ساخرا منه:

من سنواجه؟ يقولون أنّ المدينة ملعونة وأنّ الأشباح تستوطنُها.

حينها لم يتمالك نفسه، وضرب بيديه على الطاولة حتّى تطاير كلّ ما فيها وحاصرني بنظراته المتوحّشة صارخا:

سأقتلهم جميعا وسأعلّقهم على أسوار المدينة، من يظنّون أنفسهم ؟. ليسوا إلا بدوًا ورعاة يتجوّلون في الصحاري.

وبعد يومين استدعاني مجدّدًا رفقة خمسة من الضبّاط لاجتماع طارئ، وجلسنا نتفحّص وجوه بعضٍ زمنًا طويلا قبل أن يقدم «سيمون»، وبعد أن حضر خطبَ فينا خطابًا طويلا، كان وكأنّه يحكي قصّة حياته كلّها، حتّى أصاب المجلس نعاس عميق، وممّا قاله آنذاك «كنتُ صغيرا عندما تعلّمت كيفية حمل السلاح وأتقنتُ التصويب

جيّدا، وكان أبي يقول لي قديما أنّه عليّ إصابة الهدف من المرّة الأولى لأنّ الحياة ستمنحك فرصة واحدة فقط، وأنّ عليّ المحافظة عليها دائما، وهكذا عشتُ طوال حياتي أقتدي بما قاله، وكنتُ حريصا أن ألتحق بالجيش والتوغّل أكثر في السياسة.

ولم أخسر معركة خُضتها أبدا، وقد تزوّجتُ خمس مرّات ولم أنجح في علاقة واحدة منها، لأنّ قلبي كان صامدًا طوال الوقت، ولم يستسلم ولم يركع لأيّ امرأة ربّما أقول لكم هذا الكلام كي تعرفوا شخصيّتي الانطوائيّة جيّدا، وحتّى آخر امرأة مرّت بحياتي لم أعد أبصر سوى الحرب والدماء.ولم يعد يستهويني شيء.

أتذكّر أنّ «ماريل» أحبّتني كثيرا وفعلتْ المستحيل كي أبقى معها، لكنّي حاولتُ قتلها ذات مرّة عندما جاءتني للثكنة العسكريّة، وترجّت المكتب هناك أن يُطلقوا سراحي، كانت تعتقد أنّني مُعتقل أو ما شابه، فقد سمعتْ بعض الأخبار الكاذبة وقتها، والحقّ أنّني حينما ضربتُ ذلك اللّعين «ماركس» حينما احتدم النّقاش بيننا وقد قال لي:

إنّ لغتنا ليس لها أصول قديمة، وإنّها مجرّد تركيب واقتباس من اللّغات الأخرى.

فحاولتُ إقناعه بكلّ ما استطعتُ، وقد لاحظتُ من خلال حوارنا أنّه يكره الوطن فكانت نفسه متشائمة، ولسانه حادّا على تاريخنا العريق، وتطاول لحدّ لا يُغفر فقال لي:

لغتُك الفرنسيّة فاسدة وأنت تنطقها بشكل مقزّز.

وما إن قالها حتّى ارتميتُ عليه ألكمه، وأدّبتُه لأنّه تطاول على الوطن، فألقوا القبض عليّ وحقّقوا معي في ذلك، فحكيتُ لهم كلّ الذي حدث وأطلقوا سراحي ولمّا سمعتْ «ماريل» بذلك، قدمتْ كي تشفع لي عند المكتب، وأعرف أنّهم سخروا منها وربّما حاولوا مساومتها، ولأنّ الوطن لا يقبل المساومة أبدا، أدركتُ ذلك باكرا وسرتُ في هذا النهج واستقيتُ من نبعه الصافي.

وهكذا حاصرتُ «ماريل» في زاوية وكدتُ أن أخنقها، ولكنّها انفلتت منّي وفرّت بعيدًا، ربّما تستغربون ذلك وتهمسون في داخلكم بأنّني مجنون أو ما شابه، ربما في داخلي كثير من العقد النّفسيّة وكثير من التّناقضات النّاتجة عن مدّة سجني الطّويلة.

لكنّي لم أخن أبدا وطني وفي سبيل ذلك هممتُ أن أقتُل «ماريل» لأنّها اعتقدتْ أنّي جزء منفصل عن الأرض، وفكّرت أنّي لن أردّ على ذلك اللّعين الذي طعنَ في لغتنا الفرنسيّة، وكنتُ متيقّنا أنّ «ماركس» ينتمي إلى خليّة سريّة تطعن في الهويّة الوطنيّة، المهم أنّي عشتُ طوال حياتي رجلا وفيّا للوطن ومحبّا له، والآن وقد أرسلوني هنا إلى مدينتكم، في الواقع أنا لا أعرفها جيّدا، فأنتم أعلمُ بها منّي لأنّكم عمّرتم فيها منذ سنين، فقد نلتُم شرف السبْق، وأنا لن أحاسبكم أو أُدينكم في شيء.

لقد شاع في هذه البلاد أنّ هناك قوّة خفيّة تُحاربُكم، وتقتُل الجنود من حين لآخر ولا أظنّكم أغبياء حتّى تقولوا بالكلام الذي يلوكه النّاس هنا، وأنّه هناك أشباح وأنّ المدينة ملعونة وما إلى ذلك من الخُرافات، فهذه الأمور لا يُصدّقها العقل أبدا، وأنا قد جمعتُكم اليوم كي تُخبروني عن الذي يحدث في المدينة، وأنا مصغ لكم فتكلّموا.

حينها نطق «لافار» مُحاولا لفت انتباهه:

هؤلاء الأشباح الذين يتكلّمون عنهم، هم أوغاد يعيشون في الجبال، ويتسلّلون خلسة مرتدين عباءات وعمائم كي يرهبوا بها العسكر، وبعض الجنود الذين قالوا أنّهم رأوا أشباحا كانوا سُكارى وليسوا في صحوتهم.

حينها ردّ عليه «سيمون» منكرا ذلك:

أين تكونون حينما يتسلّلون إلى المدينة؟ وهل هناك حراسة ليلية أم أنّكم تباتون غارقين في الأحلام والتخاريف؟

بعدها نطق صديقي الذي أخبرتُه بقصّة تلك الفتاة، كنتُ أعرف أنّه سيُفسد كلّ شيء، فلقد كان يؤمن كثيرا بالأساطير والكرامات.

أُأكّد لك يا سيّدي أنّي ليلة بتُّ أحرس رفقة العسكر، ولم ننم أبدا، لكنّنا وجدنا جنديين مقتولين ولم نسمع طلقا للنّار، ولا صوتا يدلّ على حدوث أمر ما، كان اللّيلة هادئة وضوء القمر يضيء أركان المدينة. والحقّ أقوله يا سيّدي ولن أُنافقك في ذلك، هذه المدينة تحرسُها الجنّ واللّعنة تتسلّل من بئرها، ولقد رأى صديق ميشال فتاة واقفة أمام الحقول، وكانت كملك أبيض، حتّى أنّها لم تُكلّمه ولم تنبس بكلمة واحدة، وانتهى به المسكين طريح الفراش، واسأل ميشال إن لم تُصدّقني.

بعدها صرخ فيه سيمون وطلب منه التوقّف عن الثرثرة، وحذّره من مُعاودة هذه الأكاذيب ثمّ التفت إليّ وكأنّ بعض الشكّ تسرّب إلى روحه قائلا:

هل ما يقوله صحيحًا، وهل حقّا أنّ لعنة أصابت صديقك؟

تيقّنتُ جيّدا حينها أنّ مثل هذه القصص تستطير بكذبة صغيرة فقط، وفيما بعد تصبح أسطورة يكرّرها ضعاف القلوب، لكنّي شردت وتحدّث في داخلي ذلك الصوت العميق قائلا:

«من قال أنّ تلك الفتاة كانت حقيقة، وأين ذهبتْ فيما بعد؟ هل ابتلعتها الأرض أم ماذا؟»، ثمّ التفتُ إلى سيمون وجاوبتُه كذبا حتّى لا يُقلّل من شأني ويسخر منّي ولأنّي شعرتُ أيضا، أنّه سيطلبُ منّي أن نزوره وهكذا سينتهي بي الحال كطفل أبله معتوه.

أنا لا أعرفه، رجل صادفتْه امرأة ولم تتكلّم معه! وأيضا مرض بسبب لعنتها! أنا لم أقل أبدا هذا الهراء، ولعّل صديقنا حدث له خلط ما.

آنذاك صرخ صديقي في وجهي وصب جام غضبه عليّ، وراح يذكرني بتفاصيل الحوار الذي دار بيننا، وكنتُ أجيبُ بالإنكار وسط سخريّة «لافار» وابتسامة الآخرين.

ألم تسرد عليّ تلك القصّة البارحة، وطلبتَ منّي المساعدة كي نجد حلاّ لمرضه، وقلتَ أنّك تريد تفتيش المنازل لإيجادها؟

أنت تهذي يا صديقي، أنا لم ألقك البارحة، ثمّ ماهذا الهراء الذي تتّهمني به، من يُصدّق أنّ ملكاً أبيض يتصوّر في فتاة بربريّة، الملائكة لا يُحبّون هؤلاء الأهالي.

حينها قهقه سيمون بصوت عال لأوّل مرة، بدتْ أسنانه ممتلئة بالثقوب، وسرعان ما أغلق فمه ووضع يده على كتفي قائلا:

أنت محقّ يا ميشال، الملائكة لا تحرس هؤلاء الأهالي الحمقى، ولن تُحبّهم أبدا، يجبُ أن تتعلّموا من ميشال وتقتدوا به.

كان حينها صديقي كالماء الذي يغلي، وراح يُثرثر دون توقّف مُحاولا إقناع الآخرين أنّه لم يكن كاذبا، وحكى قصّة أخرى عن الكرامات ولسانه متلعثم، وكان متأثّرا من الذي لقيَه منّي، حتّى فكرتُ في أنّه ربّما سيُدبّر لي مكيدة ما، لم يدم الوقت طويلا فقد غادر المجلس غاضبا بعدما تحجّج بأنّه مريض، وأنّه غير قادر على إكمال الاجتماع، ورمقني بنظرات عدوانيّة وكأنّه كان يتوعّدني بالانتقام أو ما شابه، وبعد أن خرج وهدأ المجلس قال سيمون:

وبعد أن أبطلنا تلك الأكاذيب والقصص الكاذبة، بات علينا أن نعمل بجدّ كي نُلقي القبض على أولئك الفلاّحين، وننتهي منهم إلى الأبد، وسيشُكرُنا أبناؤنا على ذلك وسنكون سببا في حرق هذا المرض الخبيث، ثمّ إن مكتب الجزائر وعَدَكم بجوائز مالية إذا أطحتم بهذا التنظيم الخفيّ، وأنا متيقّن أنّ السكّان هنا مُتواطئون معهم، لذا أودُّ أن أسمع اقتراحاتكم ونُدبّر خُطّة مُحكمة للإيقاع بهم.

حينها نطق رامون الرجل الذي لا يتكلّم أبدا:

أنا متيقّن أنّهم يضعون عيونا هنا في المدينة، وأنّ هؤلاء الأهالي البدائيين جعلوا من الجبل مقرّا لهم، وأنا أقترح أن نُرسل جنودنا هناك ونقّسمهم إلى فرقتين ونمشّط المنطقة، وحين ذلك سنطوّق الطريق الجبلي المؤدّي إلى المدينة بكمين مُحكم.

لكنّهم يخبَرون الجبل أكثر منّا ويحفظون طُرقه الوعرة، وقد يستمرّ ذلك زمنا طويلا، ورُبّما لا نجدهم لأنّهم يرحلون إلى أعماق الصحراء حينما يشعرون بالخطر.

هكذا قلتُ مُحاولا جلب السيد سيمون.

حينها ردّ عليّ رامون وكان واثقا من نفسه، دائما ما كان يبدوا لي مغرورا، مذ قدم إلى المدينة وهو منعزل عن الفرنسيين، لقد أنشأ مزرعة ومنزلا جميلا وانعزل هنالك، لم يكن يعمل كالباقي، كان يستقّر زمنا لا نكاد نراه ثمّ نسمع أنّه رحل إلى مكتب الجزائر، فيلبثَ هناك زمنا طويلا وبعدها يعود ككلّ مرّة، لم أكن أفهم ماهية عمله، والآن قد استدعاه سيمون، وكان مذ بداية الجلسة يتخافتان فيما بينهما ويبتسمان، وكأنّهما يعرفان بعضهما جيّدا، لم أعد أفهم شيئا ممّا يحدث، أتذكّر أنّه قال:

أنا أعرف قوادين في المدينة، وهم ينتظرون منّا مالا فقط كي يرافقوننا إلى الجبل، وهم يعرفون كلّ صغيرة وكبيرة، علاوة على ذلك سنُحاصر الجبل من كلّ الجهات، أمّا عن الوقت فلا يهمّ، طالما سنبيدهم ونمحوهم من ذاكرة المدينة.

كنتُ أرى سيمون تزداد ابتسامته عرضا كلّما تكلّم صديقه رامون، وكان في كل مرّة يُقاطعه بكلمات الموافقة والشكر:

أحسنتَ... أنا أيضا فكّرتُ في ذلك، وأريد منك أن تضع لنا خُطّة مُحكمة تشبه ما تقوله، أمّا عن القوادين فأعْلمهم أنّي سأعطيهم أضعاف ما يُريدون بشرط أن يعملوا معنا بسرّية وكتمان.

وهكذا تمّ الأمر بيننا وانقضى المجلس، وقد ضرب لنا سيمون موعدا بعد يومين لتطبيق الخُطّة، واستدعى القوّادين واتّفق معهم وحضّر للانطلاق في رحلة البحث عن أولئك الأشباح، وقبل ذلك

أوصيتُ العبد الزنجي بتولّي الأمور في المحجر ريثما أعود، فقد كان الوحيد الذي يلازمني ويفهم طريقة عملي، وفعلا انطلقنا في الصباح.

كنّا أكثر من ثلاثمائة رجل، يتقدّمنا سيمون بخطوات واثقة، كان يمشي ويثرثر بأغاني الحرب القديمة، أمّا أنا كنتُ أسير بجانب رامون وخلفنا القوّادون والعسكر وعندما وصلنا الجبل انقسمنا إلى مجموعتين، كانت الأولى تضمّ سيمون ولافار ومائة وخمسين عسكري، أمّا أنا فكنتُ في المجموعة الثانية رفقة رامون ومائة وخمسين عسكري.

سلكنا طريقا وعرًا في الجبل ونحن نتبع ذلك الرجل القوّاد الذي لا يتكلّم أبدا، بدا وكأنّه أصمّ وأبكم، كان يكتفي بالإشارات حينما يودّ قول شيء، مشينا متوغّلين في تلك الأشجار الكثيفة قرابة يوم كامل ثمّ توقّفنا للاستراحة، لم يكن هناك أثر لشي. كانت أشعة الشمس تبتعد متسلّلة بين الفتحات الصغيرة التي تكاد تختنق، أغطش الليل وألقى بسدله، كنتُ أظنّ أنّنا سنبيتُ هنا حتّى يطلع نور يوم جديد، لكنّ رامون قال مبتسما بخبث:

هذه فُرصتنا، يجبُ أن نتحرّك بسرعة كي نُدركهم، فالآن تكون عيونهم قد نامتْ، وهذا الظلام الدامس سيُساعدنا على مباغتتهم.

ووَقتها اختلفتُ معه وعارضتُه بشدّة فيما قاله:

على العكس يا رامون قد نتوه في هذه الغابة، وربّما سيجدوننا قبلَ أن نجدهم وحينها نكون خسرنا كلّ شيء، لم لا نبيتُ هنا وغدا نُواصل البحث؟

هل أنت خائف يا ميشال، لا تقُل لي أنّك خائف من الأشباح، هذه فُرصتنا ولن نُضيّعها، ولقد أوصاني سيمون بأن أسير في اللّيل وقال أنّ اللّيل هو حصان المعارك ومن يركبُه أوّلا سينتصر.

المهّم أنّي لن أتحمّل مسؤوليّة ما يحدث.

هكذا قلتُ متذمّرا.

كنتُ أتذكّر تلك الليلة حينما قتلتُ الولد الهواري خطأ، وكيف أنّ الأشباح هاجمتنا عندما بدأت تغيبُ الشمس، كنتُ أشعر أنّهم يبصرون في الظُلمة، فقد كانوا حينها يلتفُّون بالمحجر بسرعة مذهلة، وبالكاد كان العسكر يرونهم.

فقد كانوا يُشتّتون الطلقات البارودية لإخافتهم والسماح لجنودنا بتنظيم صفوفهم كنتُ متيقّنا أنّهم يُراقبوننا، ويرصدون تحرّكاتنا خاصة ونحن عدد كبير، ثمّ إن هذا القوّاد مشكوك في أمره أيضا، فقد كان غريب الأطوار ولا يتكلّم أبدا، تملّكني شكّ حينها أنّه يقودنا إلى الجحيم، ساعتها لم أخف الأمر وهمستُ به لـرامون قائلا:

أتعرف هذا الرجل جيّدا يا رامون؟

نعم أعرفه، هو رجل معتوه، لا يعرف غير الجبال ورحلات الصيد وأنا متأكّد أنّه سيُوصلنا إليهم، هو يشمّ رائحتهم من مسافة كبيرة.

لا أقصد ذلك، أعني هل أنت واثق منه؟ أشعر أنّه سيقودنا إلى ما لا يُحسبُ عُقباه.

لا تخف... سمعتُ أنّهم خطفوا أبناءه وهو يسعى لاستعادتهم، لذا هو حريص على نجاح العمليّة أكثر منّا، وتذكّر أنّنا لولاه لكنّا تائهين في هذه الجبال المُوحشة.

وهكذا مشينا في ظلمات اللّيل على أمل أن نلقاهم نائمين في مكان قصيّ، فنُبيدهم جميعا وينتهي الأمر، ورغم صعوبة الرؤية وحرص رامون على أن لا نُشعل المصابيح الكهربائيّة إلا أنّ ذلك الرجل كان يقُودنا، وكأنّه يمشي في وضح النّهار واستمرّ الحال هكذا ليلة كاملة حتّى بدأ ضوء النّهار بالانبلاج ولم نر أحدا، كان الخلاء يزيد اتّساعا والظُلمة ترتفع إلى السماء ببطء شديد، مُخلّفة وراءها فشَلنا الذريع، حينها بدأ الشكّ يتسلّل إلى العسكر وقال أحدهم:

رُبّما لا يُوجد أحد غيرنا في هذا الجبل.

وقال رامون معلّقا على ما نطق به الجنديّ.

وربّما قد يكون سيمون والآخرون قد حاصروهم من الجهة الأخرى للجبل، وسيفرّون إلى هنا حتما، لذا علينا أن لا نتحرّك حتّى يأتي الخبر اليقين.

وفرّق أنظاره في المكان ثمّ التفت إلى الرجل القوّاد يسأله:

هل هناك كهوف في الجبل أم لا؟

فأشار الرجل إلى مكان مرتفع من الجبل، وأردف مُشيرا بأنّ هناك الكثير من الكهوف، أمّا أنا فكنتُ لا أصدّق أنّه أبكم لا يتكلّم، وهكذا تبعناه كي نتفقّدها، وما إن مشينا مسافة ضئيلة حتّى تعالى الصُراخ وتوقّف الجميع عند جندّي مقتول في مؤخّرة الصفوف، أمّا رامون فقد صرخ بأعلى صوته قائلا:

التزموا أماكنكم ولا تتحرّكوا .

وتفقّدتُ المقتول أنا و«رامون» فوجدناه مُصابا بشيء ما في رأسه من الخلف وسألنا الجنديّ الواقف جنبه عن ما حدث له، لكّنه أجاب مذعورا خائفا.

كنتُ أتحدّث معه وكان يروي لي قصصه القديمة مع النّساء، وسرعان ما انقطع صوتُه فحسبتُه متعبا من ثرثرته، وما إن التفتُّ إليه حتّى وجدتُه طريحا مقتولا والحقّ أنّي لم أسمع صوتا حينما انقطع عن الكلام.

وأردف كالكلب المسعور لاهثا:

إنّهم الأشباح يا سيّدي، يجبُ أن نرحل عن المكان وإلاّ سنموتُ جميعا.

حينها تطاير شرر النّار من عيني رامون وصفعه قائلا له:

اِصمت أيّها اللّعين، أنت أشبه بالنّساء الخائفات، لا وجود لأيّ أشباح، هم فقط يُريدون تخويفنا، وإذا استسلمتْ عقولكم إلى ما يُريدونه فهناك ستكون نهايتنا.

واتّجه إلى الرجل القوّاد وأمسكه من رقبته يريد خنقه، وهدّده بعذاب واصب لا ينقطع إذا كان يخدعنا، وجثا الرجل على ركبتيه مشيرا إلى أنّه لا يعرف ما يحدث، وبينما نحن مذهولين بما حدث، أُصيب جندّي آخر كان يقف في آخر التلّة وسقط مُحتضرا، وكان يُشير في أنفاسه الأخيرة إلى الأعلى، كانت السماء مغطّاة بالأشجار الكثيفة وأشعة الشمس تخترق تلك الفتحات بشدّة، وللحظة تفطّن رامون للخديعة التي كانوا يُدبّرونها، وصرخ بأعلى صوته قائلا:

أطلقوا الرصاص إلى الأعلى:

وما إن فعلنا حتّى تحرّكت الأغصان الخضراء في أعالي الأشجار، ورمونا بوابل من الرصاص، فسقط الكثير منّا قتلى وتراجعنا نازلين عن تلك التلّة الملعونة، لم نكن نرى وجوههم ولا ملامحهم، بدوا كأجسام مجهولة تتحرّك بسرعة، وفررنا بعدما أُضيء المكان بدويّ الرصاص وانتشرت أصوات عسكرنا، كلّهم يقولون معا:

أين هم؟... أين هم؟

وحينما نزلنا أسفل الجبل، حلّ الرعب في قلوبنا وتيّقن الكلّ أنّ العدوّ يشبه الأشباح كثيرا، وهذا ما كان يُشاع في المدينة، أمّا رامون فقد ظلّ صامتا لهول ما أصابنا، وجلس لوحده زمنا طويلا يقلّب الأفكار، الكلّ لم يفهم شيئا ممّا حدث بعض الجنود تخافتوا فيما بينهم فقالوا:

«الأشباح لن تتركنا نرحل أبدا، خاصّة وقد علموا بوجودنا هنا».

وخاطبني رامون بصوت ممتلئ بالشكّ والخوف، وأعاد عليّ طرح أسئلة قديمة:

هل صحيح أنّ صديقك رأى امرأة بصورة ملك قرب الحقول هناك؟

في الواقع يا صديقي، أنا من رأيتُ تلك المرأة الملعونة هناك، وقد حرصتُ أن لا يعرف أحد حتى لا تنالني السخرّية، أمّا وقد شاهدتَ ما الذي حدث لنا، فقد بات عليك أن تعرف أنّ عدوّنا خفيّ لا يظهر أبدا، وإنّي أخمّن أن يكون هؤلاء الأهالي سحرة وملعونين، فمنذ زمن طويل وأنا أسكن المدينة ولم أر من أعين الأهالي غير الخوف والذلّ، فمن أين يأتي هؤلاء الأشباح؟ ومن يحرّضهم علينا؟

إذن كان صديقك مُحقّا فيما روى؟

نعم كان كذلك، وخشيتُ أن يسخر منّى سيمون، فالأمر كان أشبه بالخيال والأحجيّة، وقد لاك الأهالي كثيرا أمر هؤلاء الأشباح، وصاروا يردّدونها في المدينة، فكان عليّ أن أكتم الأمر حتّى لا أزيد من حزم أولئك المتقوّلين، لكنّ الأمر واقع، وربّما يكونون الآن يسمعون ما نقول.

حينها انتفض كالمجنون قائلا لي:

كفاك توّهما، لقد احتلّت هذه الأفكار اللّعينة رأسك، ما حدث لنا كان خُطّة مُحكمة منهم فقط، لقد حاصرونا من الأعلى في ذلك المكان المظلم، وكانوا يختفون خلف تلك الأغصان الخضراء، فنالوا منّا وحقّقوا مُرادهم، وقد أدخلوا الشكّ في قلوب عسكرنا.

ماذا نفعل الآن يا رامون؟

سنُعاود الكرّة وسنصعد إلى تلك التلّة، وهذه المرّة سنُوقعهم في فخّ لن ينسوه طوال حياتهم.

عن أيّ فخّ تتكلّم يا رامون، هم يُراقبوننا مذ أن نزلنا، كيف نستطيع الإيقاع بهم؟

سنُوهمهم بأنّنا سنُغادر المكان وسنصعدُ مجدّدا هناك، لن أرتاح حتّى أقتلهم جميعا، لن يكونوا أذكى منّا.

بعدها نزلنا مسافة أخرى من الجبل، وقصدنا أرضًا مسطّحة حتى نبتعد عن العيون التي ترصدنا، والتففنا حول المكان، وجرّبنا الصعود من الناحيّة الأخرى، بعدما أعطى لنا رامون تعاليم صارمة فقال:

«تيقّنت الآن أنّهم يتّخذون من تلك الكهوف هناك مستقرّا لهم، لذا هم يُشدّدون الحراسة عند تلك التلّة، وأظنّ أنّها ليست الممرّ الوحيد للوصول إلى هناك، لذا علينا مباغتتهم، سنسلك طريقا آخر يُوصلنا إلى الكهوف، حينها سنُحكم قبضتنا على المكان وسنُطارد أولئك المتسلّقين، وتيّقنوا بأنّهم بشر يشبهوننا ونشبههم، فلا داعي لهذا القلق والشّك، صحيح أنّهم خدعونا لكنّهم ما زالوا لا يعرفون من يواجهون».

وصعدنا مجدّدا كما اتّفقنا، وعاود ذلك الرجل القوّاد قيادتنا كما بدأنا أوّل مرّة تماما، وحين تراءت لنا تلك التلّة المملوءة بالأشباح من بعيد، عرفنا أنّنا في الطريق الصحيح، وسرعان ما تسلّلنا إلى تلك الأرض الشاسعة التي كانت تضمّ الكهوف، فُوجئنا بمشهد مذهل ورائع، كانت آلاف الخيام قرب الكهوف، علاوة على الأحصنة والحيوانات المتنوّعة، ومئات من الرجال المسلّحين.

كنّا شاهدين على اكتشاف مدينة جديدة في قمّة الجبل، ورأينا أيضا النّساء والأطفال واستغربتُ لتلك الخيمة المتوسّطة المكان، كانت تحتوى على عدد كبير من الجالسين، وكان رجل آخر يخدمهم، بدا كقهوجيّ أو ما شابه، كان هذا المشهد لاصقا في مذكّرتي ولن يُمحى أبدا، خُيّل لي أنّها قد تكون مدينة جلفا الخياليّة التي استوطنها الأشباح منذ القديم، بدا لي العالم نسخة من حياة أخرى يعيشها غيرنا تذكّرت حينها شارع «لي مارتير» وزحمتها وقارنتُها بهؤلاء القوم، كانت ملامحهم متشابهة وحركاتهم مفعمة بسرّ غريب، ثمّ رأيتُ تلك البئر الآسرة، فشبّهتُها ببئر دار البارود، وجدنا أخيرا المدينة

الخياليّة التي لاكها الأهالي بألسنتهم، ووقف كلّ العسكر متسمّرين وكأنّهم مستمتعين بذلك الحلم الغريب، كان رامون مازال متحمّسا ومتوعّدا:

سنُهاجمهم ونأسرهم، ولكن يجب أن ننتظر حتّى يبتسم اللّيل فأركب حصانه وبعدها سأنتصر انتصارا عظيما.

لكنّي عارضتُه بشدّة حينها:

ألا ترى يا رامون هناك المئات من الرجال المسلّحين، أتريد مهاجمة مدينة بأكملها، كُفّ عن هذا الهراء، لطالما تبعناك وصدّقناك، لكن أن تُلقي بنا للتهلكة فهاذا ما لا نُوافقك عليه أبدا، وإن شئت فهاجمْهم وحدك فلن يُوافقك أحد على ما تقول.

وتفحّص وجوه العسكر فوجدها مستاءة من كلامه وغاضبة منه، فالتفت إليّ وقد خيّمت عليه ثورة عارمة واختمرت برغبته في الانتصار:

برأيك ماذا سنفعلُ الآن؟

سننسحب ونعود لهم فيما بعد بقيادة سيمون ونعدّ لهم قوّة باسلة كي تُوقفهم عند حدّهم.

حينها تضاربتْ آراؤنا واحتدمت من جديد بسبب عناد رامون، كان يوّد إقناع الجميع بضرورة انتظار اللّيل والانقضاض عليهم، فقال حينها:

هذه فُرصة لن تُعوّض وسنندم عليها كثيرا، هذه مدينة متنقّلة ولن تستقّر في مكان واحد أبدا، وإن عُدنا أدراجنا تكون قد ذهبتْ كلّ

جهودنا هباء منثورا وصدّقوني لن نجدهم المرّة القادمة هنا، وسيُعاقبنا سيمون إذا عُدنا أدراجنا خائبين بعدما صاروا الآن بين أيدينا.

لكنّ نقاشنا لم يدم طويلا، فبينما نحن كذلك إذ بصوت عال يطلب النّجدة، كان ذلك الرجل القوّاد الذي طالما شككتُ فيه، فرّ متّجها إلى مدينة الأشباح طالبا العون، لم يكن أبكم أبدا، لقد كان يصرخ بأعلى صوته وسط غضب رامون، الذي أصابه بطلقة نارية فأرداه قتيلا، كانت تلك الطلقة بداية للجحيم الذي أحاط بنا، هاجمنا المئات من المسلّحين، ورأيت آخرين منهم امتطوا أحصنتهم متّجهين إلينا، وأصاب جُندنا ذُعر وهلع، وحاول رامون أن يجعنا أكثر ثباتا:

اثبتوا لدقائق فقط، هم ليسوا إلاّ بدو رعاة.

لكنّ ذلك لم ينفع، فبعد أن تبادلنا معهم النيران، فرّ عسكرنا مستنفرين كالجرذان وتفرّقنا في الغابة الشاسعة، وطاردونا وأسروا الكثير منّا، أمّا رامون فقد بقي لزمن طويل رفقة خمس عساكر يُبادلهم الرصاص، ولم يستمرّ طويلا حتى سقطوا قتلى أمّا أنا فقد سلكتُ طريقنا الذي أتينا منه رفقة مجموعة من العسكر، وظلّوا يطاردوننا ليلة كاملة، ومع بزوغ فجر شديد كنّا على عتبة أبواب المدينة، بقي منّا عشرون رجلا بعدما كنّا مائة وخمسون، خسارة كبير في صفوفنا وخاصة مقتل رامون، وأعرف أنّ سيمون لن يتسامح معنا أبدا، لكن علينا تحذير المكتب من المدينة الخيالية التي تستعدّ للهجوم علينا وطردنا.

وعند عودتنا وجدنا أنّ سيمون وجنوده عادوا بعدما لم يلقوا شيئا، وأخبرتهم بالذي حدث لنا، وعن المدينة الخياليّة التي رأيناها

هناك، وحينما بحثتُ عن ذلك القوّاد الذي ذهب رفقة سيمون لم أجده، بعدها أخبرني لافار أنّه فرّ حينما توغّلوا في الغابة، عرفتُ حينها أنّهما كانا ينتميان إلى الأشباح، ومن المؤكّد الآن أنّهما من سكّان تلك المدينة، لم تكنْ عودتنا نجاة بقدر ما كانت جُبنا ونذالة، فقد اتّهمنا سيمون قائلا:

أنتم أنذال وخائنون للوطن، لماذا لم تُقاتلوا حتّى الموت، لماذا عُدتم خائبين هكذا كالنّساء، قُتل صديقي رامون وأنتم ما زلتم أحياء، لقد جلبتم لنا العار.

حينها أجبتُه مُحاولا تهدئته.

فررنا كي نُخبركم بموقعهم، ونُعطيكم الخبر اليقين عنهم، وأنا متأكّد أنّهم لن يستطيعوا تحويل مدينتهم في أقّل من أسبوع، فمدينتهم فيها كثير من النساء والأطفال والحيوانات، والآن بات علينا أن نُجهّز جيشنا ونباغتهم قبل أن يرحلوا.

كان «سيمون» حريصا على إلقاء اللّوم علينا، فراح يُعاتبنا قائلا:

لما لم تُرسلوا أحدا فقط لإبلاغي، كلّكم فررتم لتنجوا بحياتكم.

ثمّ أمر بسجننا كي ننال نصيبنا من العذاب، ولم تمض ساعة واحدة حتّى طلبني مُجدّدا، وأخبرني أنّنا سنصعد الجبل غدا صباحا، وأنّ عليّ تحضير نفسي، نمت بضع ساعات كي أرتاح قليلا، وفي الصباح الباكر قُدنا أكثر من ألف جنديّ وحملنا معنا أسلحتنا الثقيلة وعتادنا، وبعد يوم كامل من السير المستمرّ وصلنا إلى المكان وما إن تسلّلنا مُحاولين مُباغتتهم حتّى تفاجأتُ بما رأيتُ، لم يكن هناك أحد، كان المكان خاليا خاويا، حينها نظر إليّ سيمون وقد ساوره الشكّ:

هل أنت متأكّد من أنّه نفس المكان، ربّما نكون قد تُهنا في الجبل.

أجبتُه مستغربا حينها.

أنا متأكّد أنّهم كانوا هنا، مازلتُ أرى أشباحهم تتحرّك هنا وهناك، وتلك البئر التي تتوسّط المكان دليل على أنّهم كانوا هنا، قد رأيتُها تلك الليلة اللّعينة، كيف استطاعوا بهذه السرعة أن يرحلوا؟

كان الأمر بالنسبة لي جنونيّا وشيطانيّا، وراح يتسرّب لي ذلك الشكّ الملعون فكّرتُ في أن يكونوا غير حقيقيين وأنهّم على الأرجح شياطين ملعونة، وعُدنا أدراجنا بعدما أمرنا سيمون أن ننسى ما حدث وحرص على أن لا يتسرّب للأهالي، فقد رأى أنّ الأمر مُعقّد نوعا ما، فنظريّا لا تستطيع مدينة بأهلها وخيامها وحيواناتها الرحيل في يوم واحد فقط، وقد فكّر سيمون في ذلك وبدأ مُعاودة النظر فيما حُكي له من الكرامات، والأساطير التي يُعاودها أهالي المدينة.

الفَصْل الثَّاني

توقّف القطار القادم من العاصمة أخيرا في مدينة جلفا، نزل حينها جون رفقة لينا بعد رحلة طويلة مُحمَّلا بهواجسه، وأسئلة كثيرة لطالما أرَّقته في فترات حياته مشى بخطوات متفحّصة، راح يبحث عن صفحات تلك المذكرة في هذه الدور القديمة والحشد الغفير من الناس، كان مُتلهّفا لرؤية تلك الصخرة والبئر التي طالما وصفها جده، لكنه عندما لمح المرأة في ذلك الممر التي كانت ترتدي حائكا جُنّ بشوق شديد إلى أمّه مريم، تذكَّر كلمات عمَّته «كلارا»، وهي تحكي عن مريم: «كانتْ خجولة، تُرسل نظراتها للأرض وهي ماشية، وصلبة صلابة تلك الأرض عندما يعترضها أحد بسوء»، وفجأة أفاق على كلمات ذلك الجندي:

– سيدي، هل أستطيع مساعدتكما.

– نعم أين أستطيع إيجاد فندق هنا؟

ابتسم الجنديُّ مُطوَّلا ثم قال:

– هذه مدينة صغيرة ولا يوجد فيها فنادق، هي ليستْ كما تتخيّل، لاسيما وأنّك تزورها لأول مرة.

– حسنا هل يوجد منزل للكراء هنا؟

– لا يا سيدي، عليك الذهاب إلى مرقد الفرنسيّين، وقدّم بطاقتك للمكتب هناك للحصول على مسكن.

استقرّ جون ولينا رفقة الأوروبيين، بعدها راح يتجوّل المدينة، فبالرغم من خلوّها من الحدائق والأشجار والأشياء المميّزة، لكنّه كان يجد في قسوة العيش لذّة قريبة لنفسه، كان يبحث عن أمّه في تقاسيم هؤلاء البدو، وعن جدّه في قسوة المناخ وصلابة هذه الأرض، يبحثُ عن ملامح ذلك النّاموس وعن هواجسه التي مازالت تعذبه، لكنّه تذكّر أنّها لم تزره منذ فترة، ابتسمَ وتوغَّل في ضوضاء تلك السوق التي كانت تملأ الطريق الرئيسي للمدينة.

توقّف أمام «دار البارود» مُتوجّسا من لعنة بئرها، تذكَّر أخيرا أنّه من أهلها وأنَّ لعنتها ليستْ تعنيه، وحينما شاهدَ تلك العباءات السّوداء المعلّقة على طاولات الطريق، تذكّر الأشباح الليلية التي هاجمتْ جدّه ذات ليلة في معمله، كان يرى في كل ركن من المدينة ذكرى لاصقة بذهنه.

تنهّد طويلا بعدما توغّلتْ تلك المشاهد في داخله، وأعاد ترتيبها من جديد كما قرأها أوّل مرّة، ثمّ جلس في المقهى بين أهل المدينة علّه يجد سرّ الأحجيّة وحكاية ذلك الغبار الدّفين منذ زمن بعيد.

واختمر الواقع بالخيال فلم يعُد يعي فاصلا ولا يُدرك تأويلا، وجلس خاشعا كأنّما أصابه التيه والضّياع، وبدا كأخرق يتخطّفه الموج، ودّ أن يسترق السمع قليلا فيفقه من حديثهم شيئا لكنّه لم يكن يعرف كيف يعيشون؟ وعن ماذا يتّكلمون؟ كل ما يعرفه ذلك

الكتاب ذي الغلاف الخشن، وبينما هو غارق في أسئلته الكثيرة، سمع صوتا لطالما سمعه، كانت ضحكة النّاموس المعهودة، وبنبرة صوته التي لا ينساها، كان يقهقه بصوت عال:

– ماذا تريد أن تفهم من هؤلاء البربر الحمقى؟

– أرجوك ابتعد عنّي، لا تفضحني أمامهم، هم مختلفون عن أفكارك اللّعينة، أنت لا تعرف سوى مُلاحقتي وتنغيص علي كل شيء.

– قتلوا جدَّك وأمك مريم وما زلتَ تُريد أن تكون قريبا منهم والتودُّد إليهم.

آنذاك فقد جون أعصابه وبدأ بالصراخ، ورمى بالطاولة غاضبا:

– أنتَ كاذب أيّها المعتوه، أنتَ لستَ سوى قاتل مثلهم.

جثا على ركبتيه وراح يلهث بعدما تفاقمتْ حالته النّفسية وسط ذهول الحاضرين حينها تقدم منه رجل يُدعى «السي العربي» مُشفقا عليه، وأعادَ ترتيب المكان ورشّه بكوب من ماء، وأقعده على الكرسيّ، كان السي العربي يتقنُ الفرنسيّة جيدا لاسيما وأنّه يعمل في المكتب الفرنسي هناك، كان الأهالي كثيرا ما ينعتونه بالمنافق لأنّه كان مُتواطئا مع الفرنسيين، وأحيانا مندّسا بين العامة في مجالسهم وأحاديثهم، فكان الكل يتجنبُّه خوفا من نفاقه البائن، خصوصا عندما يتجوّل مع الجند ضاحكا، لكنه سرعان ما يتكأ على جدار المقهى قرب أصدقائه، بثرثرته قائلا:

– لا أفهم ماذا يريد هؤلاء الفرنسيّون مني، دائما ما يُجبرونني بالقُوّة على الحديث معهم.

وكعادته قرّب سي العربي رأسه للطاولة مُقابلا جون وقال مبتسما:

– هل بدأتْ لعنة الجيتول تتسرّب إلى عقلك؟

– شكرا لك، لكنّي لا أفهم ما تقول؟ ما هذا الجيتول الذي تتكلّم عنه؟

– أنا أمزح فقط، لا تكترثْ لما قلتُه، أنتَ غريب عن المدينة، ربّما أنتَ الذي قدم مؤخّرا للمكتب الفرنسي يطلبُ سكنا.

– نعم أنا هو واسمي جون، وجدّي هو الضابط ميشال ربّما تعرفه؟

– هل كان جدُّك يعمل في المعمل الصخري الذي يقع في المخرج الشمالي، كيف أستطيع نسيانَ ذلك الرجل، أقصد أن الكُلّ يعرفه خصوصا بعد تلك الحادثة.

– نعم هو ذاك، الذي قتلتُه تلك الصخرة.

تنهَّد قليلا ثم قال بصوت خافت:

– صخور الجيتول، لا تستغربْ يا صديقي من هذه الكلمة، فأنا أحبّها فقط، هي تُطلق على القبائل التي سكنت هذه المنطقة منذ القديم.

قصد جون في تلك الأمسية أطراف المدينة مع سي العربي، حمل مذكّرات جدّه معه ثم توجّه إلى المحجر، حيث توجد الصخرة الخيالية التي لطالما استولتْ على تفكيره، وأرّقته أثناء اطّلاعه على ذلك الكتاب ذي الغلاف الخشن، مرّر يده على سطحها، تحسّس آثار السلسلة التي كانت تأسرها، نظر حوله في الوادي وهو يرى ذلك الغبار المتصاعد وأولئك العمال والجنود متقمّصا حركات جده وهو يصرخ في وجوههم، لكنه أخيرا استسلم للهدوء الذي احتّل المكان،

اتكأ على الصخرة مُطوّلا، وضمّ كتابه إلى صدره وكأنّه يحتضن مولودا جديدا، كان قد بدأ صداقَتَه معها حينما بدأ يحكي لها عن ماضيه وعن مغارة لاسكوا، وراح يُعرّفُها بتلك الصخور البرتقالية، راسما صورة جده في وجهها الصلب وقد اختمرتْ بهوامش حياته المُتناقضة، تلك الأمسية كانت بداية لأمسيات كثيرة، فلقد أدمنَ مُجالستَها وخاصة عندما تطفوا هواجسه كجثّة تناستْها الأمواج ولم تعُد تُغريها، فيأوي إليها كشاطئ حصين يُبعدُه عن وساوس النّاموس، سرعان ما يرتاح ويُشفى من ذلك الصداع الذي رافقه زمنا طويلا من حياته.

ومرّت الأيام وبدأ جون يكتسب عاداتهم وحياتهم، بدأ يتعلّم كيف يعيشون، وكيف يحيون وكيف يموتون، لكنّ صديقتَه لينا ضاقتْ بها الأرض ذرعا وسئمتْ ملامح المدينة الجديدة، ولم تكن ترى طائلا من المكوث فيها، كانت في كل ليلة تُحاول إقناعه بالعودة، لكنّها عبثا تُحاول فقط طال بها الأمد، وتعبتْ من الحديث قُرب المُنتهى، وتيقّنتْ أنّه قد فات الأوان، ففي ذلك الوقت تحوّل جون إلى شخص آخر غير الذي تعرفه، لكنّها لم تبتئس وظلّتْ للذكرى مُغرّدة، كانت كل ليلة تزيد شوقا وحنينا لأهلها ولمدينتها، فتسردَ حكايات مختلفة عن طفولتها وعن تلك الكنيسة القريبة من منزلها، فيشحب وجهها عندما ترى ذلك الجمود والغموض الذي يحيط بالمدينة.

لكنّ جون كان متفطّنا ونصحها بالمعالم الأثريّة التي سمعَ عنها في المدينة، وحوّل شقاءها حياة بهيجة، فاستقتْ منها أسرارا دفينة، وتوغّلتْ في طيّات تاريخها العتيق، ومنذ ذلك الحين ظهر شغفها بتلك المحطات القديمة المجاورة للمدينة، وخاصة عند رؤيتها لذلك الظبي

الأفريقي في محطة زكار[1]، كان هذا الرسم عبارة عن ظبي إفريقي يجثو بينما يلتهمه أسد مع أن الأسد يبدو أقل شكلا، كانت تتحدث عنه طوال الوقت عندما عادتْ للمدينة، وراحتْ تختلق حكايات من رأسها عنه، أو لعله بعض ما تذكرتْه في صغرها، كانت تقول لجون عنه «هو ملائكة وليس ظبيا فقد رأيتُه ذات ليلة وهو يُحلّق في سقف الكنيسة عندما كان الكل مُغمضين أعينهم مُتضرّعين للمسيح»، وبعد يومين فقط فاجأتْ جون بقرارها، وأنّها تنوي المكوث هُنا مدة طويلة، فابتهج لذلك وأحبَّ شغفها المتزايد بالآثار يوما بعد يوم، علاوة على ذلك فقد اصطحبته لمحطة «صفية بورنان» التي اكتُشفت مؤخرا، شاهَدَا تلك الرسومات المشابهة لمغارة لاسكوا، فيل وكبش ونعامات وغزال وكذا مجموعات من الخيول.

كان جون يقول لها مازحا «أخيرا وجدتُ إخوةً لأصدقائي القدامى»، وهكذا قرّرتْ لينا أن تكتبَ كتابا عن هذه الأماكن الأثرية، وتجمع تاريخ تلك القطع النادرة، كما ساعدها جون في ذلك خوفا من أن تتذكّر موضوع عودتها، لكن تلك الليلة الباردة كانت تخبئ غير ذلك، فحينما كانا عائديْن إلى منزلهما، رأيا مشهدا غريبا في شارع «لي مارتير»، حينها صادفوا مجموعة من الجنود يُطاردون شابا، كان يركض بشدة مُحاولا الاختفاء عن أنظارهم، وشاهَدَا توقُّفَه المفاجئ وهو يلهثُ محاولا استرجاع أنفاسه ثمّ عاود الجري من جديد لكنه انتهى به المطاف تحتَ أقدامهم، أخذوا يضربونه بالعصي حتى فقد

1- محطة زكار: اكتشفت هذه المحطة سنة 1907 من قبل السيد: ماقني القاضي في الجلفة أنذاك. فيها رسوم جميلة ودقيقة لظبي إفريقي يجثو على ركبتيه بينما يلتهمه أسد، مع أن الأسد يبدو أقل شكلا... وفيها رسوم لنعامة ولوحيد القرن.

وعيه، ثم جرُّوه كجثة هامدة أمام ذهول لينا وغضب جون الذي لم يتمالك نفسه، فاتّجه نحوهم ثائرا، ودفع أحدهم محاولا إنقاذ الشاب، لكنهم انهالوا عليه بالضرب واعتقلوه.

كانتْ عيْنَا جون تبتعدان عن المكان الذي تقفُ فيه لينا لمّا تحركت سيّارة الجند مبتعدة عن شارع «لي مارتير»، لم يشعر جون بما حدث بعد ذلك، فقد فتح عينيه على أصوات قريبة منه جدا، لم يفهم ماذا حدث لكنه حينما أمعن النّظر، عرف أنه في زنزانة ضيّقة رفقة أربعة رجال مُتراكمين فوق بعضهم، أحدهم كان ملطّخا بالدماء، والآخر عيناه منتفختان من آثار التعذيب، حينها سمع جون تمتمة خائفة:

– هل ألقوا القبض على بوزيان؟

– لا تخف لن يستطيعوا الوصول إليه، أريدك أن تتحلّى بالصبر وأن لا تستسلم لتعذيبهم.

– لكنهم هدّدوني بقتل زوجتي وابني زكريا، لا أعرف ماذا أفعل الآن، أنا قلق عليهم.

– هم يُحاولون إخافتك فقط، لتعترف بكل شيء، لا تقلق على عائلتك فهي الآن خارج المدينة، لقد قُمنا بنقلهم إلى مكان آمن.

لم يفهم جون تلك التمتمة الخائفة، لكنّه فهم ابتسامة ذلك الرّجل القلق، فهمَ أنّ كلمات صديقه قد أزالتْ قلقه وخوفه حيال أمر ما، ولم يمرّ وقت طويل حتى وقف الجنديان عند رأس جون واقتاده أحدهما إلى زنزانة أخرى، ثمّ أجلسه على الكرسي وكبّله بالسلاسل، ومرّ زمن طويل وهو صامت لا ينبس بكلمة واحدة حتىّ دخل رجلان يرتديان ملابس سوداء شاحبة، بدأ أحدهما يصرخ قائلا:

– تريد خداعنا بملابسك الفرنسيّة هذه، تبّا لك ولأولئك المتمرّدين، هيا أخبرني عن تنظيماتكم السرّية تلك.

– أنا لستُ منهم، أنا لا أنتمي لأي تنظيم يا سيدي، أنا فقط...

– إذن تريدُ تعقيد الأمور على نفسك.

قال ذلك وقد صرخ بجنون وضرب الباب برجله غاضبا مُتذمّرا.

– من أين يخرج لي أولئك البربر الحمقى، يظنّون أنّهم قادرون على مواجهة فرنسا.

حينها أمسك بقفا جون، وأنزله بعنف للدلو المعبّإ بالماء الوسخ وقاذورات المراحيض، ثم أدخل رأسه لمدة طويلة كاد فيها أن يلفظ أنفاسه، فما كان من جون إلاّ الصُراخ بأعلى صوته كُلّما أُخرج رأسه من الدلو:

«أنا جون حفيد الضابط ميشال.»

لكن ذلك الرّجل الثخين ازداد غضبا:

– تريد خداعي مُجددا أيّها الخائن.

لم يُكمل ثرثرته الكثيرة حتى كان رنين هاتف ما في الجوار ينتشر في الزنزانة خرج حينها ذلك الرجل مُسرعا، ثم تبعَه الآخرون وتركوا جون مُلقى وسط ظُلمة دامسة، ودقّت الساعة الموالية لتلك الليلة على خشخشة باب الزنزانة وهو يُفتح حينها دخل رجل مسن يتبعه بعض الجنود، والتفُّوا حول جون الملقى على الأرض وتفحصّوا جروحه بعدما حملوه بعيدا عن تلك الغرفة المظلمة، ووقْتَها فتح

جون عينيه وقد قابلتْه لينا رفقة ذلك الرجل المسّن، كانت لينا تُحاول إخبار جون أنّهم أخطؤوا في اعتقاله وأنَّ صديق أبيه الجنرال ماري جاء مَسرعا حالما سمع أنّك حفيد الضابط ميشال، وقد أصرّ أن يأتي بنفسه للاعتذار منك والاطمئنان على حالتك إلى أن تكلّم الجنرال ماري.

– عذرا يا صديقي على ما حدث لك، كان ذلك ذنبا لا يُغتفر، وسأحقّقُ مع الجنود الذين اعتقلوك لأنّهم لم يسألوك من تكون، لقد أصبحوا أكثر حذرا بسبب تزايد هؤلاء المتمرّدين الذين انتشروا بكثرة، والآن دعنا من ذكرهم، هل أنتَ حقا حفيد الضابط ميشال؟ أعني ما الذي أعادك إلى المدينة بعدما رحلتْ كلُّ عائلتكم.

– أتريدُ طردنا أم ماذا سيّدي، نحن ضيوف عندكم، ألمْ يكفي أنّه استقبلَنا العسكر بالضّرب والأسئلة الكثيرة الغامضة.

– أعرف أنّك تمزح فقط، أنا سعيد أنّك رجعتَ لأرض أجدادك، كيف تريدني أن أطردك من مدينتك، أمّا ما جرى لك فكانت جريمةً، ومساساً بشخصك ولن أغفرَ لأولئك الجنود، أعدك بذلك.

– أريد أن أمكثَ هنا قليلا، قد قرأتُ كثيرا عن هذه المدينة في مذكّرات جدي.

– أعرف جدّك، لقد حكى لي أبي عنه قال أنه كان رجلا عسكريا، لقد خدم وطنه ولم يُقصّر في حقّها، وأخبرني كذلك بأنّه كان يزوره في المحجر، وأحيانا كانا يخرجان سويّا للصيد، وأنّه يعرف عائلتكم جيدا.

– لم أقرأ ذلك سيدي، ربّما كانا قريبين من بعضهما لدرجة أنّه لم يُفكّر أن يكتبه في مذكّراته، هو كتب فقط عن ذلك المحجر وعن أولئك العمّال الذين كانوا هناك.

– سأرحلُ الآن، المهم تأكدتُ أنّك بحالة جيدة، تصرّفْ كما شئتَ في هذه المدينة وأعدك أن لا يتعرّض لك أحد بسوء.

عاد جون رفقة لينا إلى منزلهما، وفي ذاكرته صورة ذلك الشاب الفار من الجند كان يتساءل في نفسه عن سبب فعلته تلك، وعن كلمات الجنرال ماري حينما تكلّم عن المتمردين المنتشرين حول المدينة، تذكّر أولئك الرجال الذي التقاهم في السجن، استغرب تمتمتهم الخائفة تلك، وفتح كتاب جدّه متناسيا كلّ شيء.

الصفحة 82:

«ما زالت صورة تلك الفتاة الملعونة لم تُغادر رأسي، فكُلّما أغمضتُ عينيّ رأيتُها قابعة تنظُرني أن آتيها، ومازال سيمون لم يُصدّق كلُّ الذي جرى، فلقد دعاني بعد الحادثة بأيّام وقال لي:

أعرف أنّك كاذب ومفتر بادّعائك، وقد أوصيْتَ الجنود كي يقولوا مثل ما قُلتَ.

عن أيّ شيء تتكلّم يا سيّدي، في أيّ شيء افتريتُ عنك؟

أعرف أنّكم لم تروا مدينة قطّ... هناك في أعلى الجبل، وأنّكم قُلتُم ذلك كي تُبرّروا خسارتكم في معركة ما، وأنا متأكّد أنّ شرذمة من أولئك البدو قد انتصروا عليكم.

أُقسم أنّنا قُلنا لك كُلّ ما رأينا، وإذا لم تقتنع بكلامي فاسأل العسكر وحقّق معهم.

حينها صمتَ سيمون وشرد يُفكّر في شيء ما، وغادر المكتب حينها قائلا:

«لن أُغادر هذه المدينة حتّى أُقابل أشباحها».

أمّا أنا فأطلقتُ العنان لرجليَّ حتّى أتمشّى في المدينة، كان ذلك المساء يبدو كأرجوحة مُحمّلة بالأطفال، فقد كان هادئا جدّا، كنتُ أرى الأهالي كما رأيتُهم أوّل مرّة، وكأنّ هذه المدينة جامدة ساكنة منذ آلاف السنين، لا يطرأ عليها طارئ ولا يُكدّر صفوها تحويل أو تغيير، ومررتُ من ذلك المبنى الشامخ دار البارود فبدا كصندوق عظيم يُخبّئ الأشباح، فوقفتُ أمامه متأمّلا متحيّرا «كيف يكون للمدينة نسخة منها متنقّلة في الجبل؟ ككائن مجنون يترصّد بعسكرنا، متى وُلد هؤلاء الأشباح وكيف أتوا إلى هنا؟ أم أنّهم خرجوا من الأرض كجراد منتشر؟».

مُذ أتيتُ إلى المدينة والهدوء والأمن يسودان شوارعها، فكيف وُلد هذا اللّغز الذي يُطاردنا، أهو علامة على حرب قادمة ؟ ومضيتُ شاخصا ببصري إلى السماء وأنا أعبر ذلك الشارع الضيّق، وإذ بي أسمعُ صوتا خافتا تسلّل من آخر الشارع اختبأتُ وألقيتُ ببصري ناحية الصوت، كانت هناك عجوز ترتدي حائكا تتحدّث مع رجل فارع الطول، كانا قريبين منّي ومناجاتهما تصل إلى مسمعي، تكلّما بالعربيّة التي لا أفهمها، كانا يلتفتان كثيرا وكأنّ أمرا خطيرا

يحدّق بهما، ممّا جعلني أشكّ في نيّتهما الخبيثة، ولمّا تمعنتُ جيّدا حائك العجوز، فزعتُ لما لاحظتُه، كانت وكأنّها تُخفي بندقيّة أو ما شابه فقد كان حائكها مُنتفخا، بعدها راحا يطرقان بابا بشدّة، بعدما تناجيا ربّما في أنّ أهل البيت غير موجودين.

وتأكدّتُ حينها أنّها فُرصتي التي لا تُعوّض، وأنّ المسيح يُريد أن يُريني من خبر هؤلاء الأشباح خبرا يقينا، وفكّرتُ أن أُشهر سلاحي في وجههما، لكنّي تراجعتُ عن ذلك ورأيتُ عواقبه وخيمة، فحينها سنتبادل إطلاق النّار وربّما سيفرّون ولن أستطيع اللّحاق بهم، فقعدتُ أرصدهما وأحاول معرفة ما هو كائن، وبعد زمن قصير قدمتْ امرأة أخرى ترتدي حائكا، كانت خفيفة الحركة ذات عينين جميلتين كانت تُشبهها تماما، أقصد المرأة الملائكيّة التي صادفتُها قرب الحقول، أم تُراني أشّبه الأشياء جُزافا واعتباطا، فقد خُيّل لي أنّ الأشياء تُعاود نفسها وتُكرّر حدوثها وكأنّي أتحرّك في مكان دائريّ، المهمّ أنّها وقفتْ تُكلّمهما ثمّ أخرجتْ مفتاحا وفتحتْ الباب واختفوا خلف ذلك الباب الخشبي، وحينها ركضتُ كالمجنون إلى المكتب، ودخلتُ إلى سيمون لاهثا وقلتُ له صارخا:

الخارجون عن القانون...المتمرّدون.

ما بهم...هل شاهدتهم؟

نعم لقد رأيتهم يدخلون ذلك البيت الموجود في الزقاق الضيّق.

حينها أسرعنا رفقة عدد كبير من العسكر وحاصرنا المنزل، وحينها سألني مُجدّدا سيمون:

كم عددهم ... وهل كانوا يحملون معهم أسلحة أو ما شابه؟

رجل فارع الطول وعجوز وامرأة.

وكيف عرفتهم أنّهم ينتمون إليهم؟

لأنّ العجوز كانت تُخبّئ سلاحا تحت حائكها، وكانوا يتخافتون بينهم وكأنّهم يُحضّرون لمكيدة ما.

حينها صرخ سيمون كرجل مجنون:

طوّقوا هذا الشارع ... أريدهم أحياء.

وحينما حاولنا كسر الباب الخشبي، أُصيب جنديّ منّا من طلقة من الأعلى، لقد كان ذلك الرجل فوق السطح، وكان رجل آخر خلف الباب يصوّب طلقاته بجنون وهكذا تراجع العسكر بعدما أمرهم «سيمون» بذلك، ومرّ زمن طويل ونحن نُحاصرهم ولم يستسلموا أبدا بل ظلّوا هناك صامدين، وساد الصمت فخمّنتُ أن يكونوا فرّوا من المنازل المُجاورة، فحذّرتُ سيمون قائلا له:

- ربّما يكونون فرّوا من المنازل الخلفيّة المُقابلة للشارع الرئيسي.

- خذ العساكر وحاصروا الشارع الرئيسي، وأنا سأقتحم المنزل الآن... هيّا أسرع.

ووقتَها اقتحم سيمون المنزل رفقة العسكر وقلبوه رأسا على عقب ولم يجدوا شيئا أمّا نحن ففتّشنا المنازل الخلفيّة المُقابلة للشارع الرئيسي ولم نجد شيئا وكأنّ الأرض ابتلعتهم، حينها وقف سيمون مبهورا للذي شهده، وراح يُفتّش الأرض وأمر الجند بذلك قائلا لهم:

ربّما تُوجد أنفاق هنا، فتّشوا كل شبر في المنزل وإلا سجنتكم جميعا، لا تجعلونني أُجّن، لا يُمكنهم أن يختفوا بعد أن كانوا بين أيدينا.

وبينما نحن كذلك، أحضر جنديّ ولدا صغيرا، وقال أنّه رآهم يفرّون من الشارع الرئيسي متّجهين إلى خارج المدينة، وحين سألناه أخبرنا أنّهم ثلاثة رجال، ساعتها لم أفهم شيئا ممّا يحدث، عاودتُ ملامح تلك المرأة الجميلة التي كانت ترتدي حائكا، كيف يُعقل أن يتحوّل إلى رجل، أنا متأكّد أنّها امرأة، أم أنّها تلك المرأة القديمة تصوّرتْ في جسد ذلك الرجل، يعني أنّهم ثلاثة رجال؟ وراح آنذاك سيمون يصرخ قائلا:

كانوا رجالا إذن، معنى أنّ كلّ النساء اللواتي يرتدينَ الحائك كنَّ رجالا، وأنّهم يتلاعبون بعقولنا أم ماذا، يُريدونني أن أغتصب نساءهم أم ماذا؟

ومضى ذلك المساء وحمدتُ المسيح لأنّ سيمون رآهم، وتبادلوا معه إطلاق النّار وإلاّ لكان اتّهمني بالجنون والوسوسة، ويُحيلني إلى السجن حينها، تأكّد الجميع أنّهم كانوا واقعا وليسوا أشباحا، وصباحَ غد فرضنا حصارا كليّا على المدينة، وفتّشنا المنازل لكنّنا ككلّ مرّة لم نجدْ شيئا، ومرّت الأيّام هكذا مبهمة غامضة وكأنّه اليوم الأول لولوجي هذه المدينة، كانت مدينة جلفا السرّ الدفين الذي طالما أرّقني وأعاد تصوّري للأشياء.

صرتُ أعيش منطق الأسطورة والخيال واعتقده اعتقادا جازما، أمّا حكاية سيمون فتغيّرت تماما وأخذتْ اتّجاها مُغايرا، تحوّل من

ذلك الرجل الوطني البطل إلى رجل انتهازيّ جشع، وراح يجمع المال والأغنام والأبقار بعدما طردَ أحد المُزارعين من أرضه، واتّهمه بأنّه يتعاون مع أولئك المتمرّدين، وصار يخرج في رحلات صيد كلّ ليلة مُتناسيًا أمر أولئك الأشباح، لأنّه تأكّد أنّه سيهلك ويُجّن إذا تتبّع أثرهم.

وكنّا كل ليلة نجرّ جثث جُنودنا وندفنهم سرّا، حتّى لا يُشاع أنّ الجريمة تفشّتْ وأولئك الأوغاد انتصروا علينا، وحينما طلبتُ من سيمون ذات يوم أن نتفقّد الجبل مرّة أخرى، وأن نبعث برقيّة كي نطلب الدعم من مكتب الجزائر، أجابني ساخرا:

ما الذي ينقُصنا؟ نحن نعيش بأمان وأولئك الأشباح قد رحلوا للأبد.

كيف ذلك؟ وجنودنا يموتون كلّ يوم.

ما دخلُك أنت؟ أنا المسؤول عن كلّ شيء هنا، وأنا متيقّن أنّ المدينة بخير.

تكاثر أولئك الأوغاد وسيمون تحوّل إلى شخص آخر، كان همّه الوحيد الشُرب والصيد والسخريّة من الآخرين، أمّا أنا فعدتُ إلى المحجر بعد أن غبتُ عنه زمنا طويلا.

حينها وجدتُ ذلك الزنجيّ يعمل بشكل جيّد وقد كتب في السجّل كل التفاصيل صغيرها وكبيرها، ومنها أنّهم قد أتوا بمعتقلين جدد من مناطق مُختلفة، كان فيهم رجل يُدعى عيسى وقد أتى من منطقة الشرق، وكُتب عنه أنّه كان ينوي جمع النّاس كي يُعلن عن تمرّد ويقوده قبل أن يُلقى عليه القبض، ويؤتى به إلى منطقة جلفا، كان المحجر ملتقى لكلّ الأجناس والألوان، أكثرهم كان لا يستقرّ

كثيرا، بل يُكملون فترة سجنهم ثمّ يُنقلون إلى مناطق مُجاورة، وكان سيمون يزوروني بين الفينة والأخرى ويقعد معي ساخرا من أولئك البربر وحركاتهم.

انزويتُ إلى غرفتي الكائنة بالمرقد، كان قد مرّ زمن طويل على زيارتها، أتّذكر اليوم الأوّل لي هنا، وكيف أنّه لم يتغيّر شيئا، بدا كلّ شيء غريبا وكأنّ هذه الأرض لا تريد أن تضمّنا أبدا، ورأيت مكتبي القديم وكتبي تلك التي كنتُ أقرأها ليلا نهارا مُحاولا أن أفهم تقنيّات الحرب والأنظمة التي سادت في العالم، وصارت فيما بعد مثالا للصمود والصبر، وقارنتُ ذلك بما حدث لنا في المدينة، بعدما مرّت السنون وصرنا لا نُطيق القعود والتعمير هنا، رأيت في جدران الشوارع أولئك الأشباح وسطوتهم وحبّهم للدماء والبطش، كنّا نأسر منهم العشرات ونقتلُ منهم الكثير لكنّهم كانوا يتوالدون بشكل فظيع، كأنّهم كائنات تنتشر من باطن الأرض وتُعاود ذلك كلّ شهر أو أقلّ.

وبعد صمت طويل من سيمون دام لأكثر من عام كامل، دعانا لجلسة طارئة، وقد تغيّرتْ ملامحه وشعرنا من نبرة صوته أنّه كان جادّاً فيما سيقوله هذه المرّة، وأنّه ربّما قد أتى بشيء جديد ربّما، وهكذا كتلك الأمسيّة البعيدة تكلّم بصوت هادئ.

«لقد مرّ عام على ذلك الكابوس الفظيع الذي ألمّ بنا، وعصف بعقولنا وغيّر نظرتنا للأشياء وخاصّة أنا، فلطالما اعتقدتُ أنّ هؤلاء البدو يجهلون فنون الحرب وخواص القتال التي نعرفها، وها قد برهنوا أنّهم أشباح إنسانية وما زالوا حتّى الآن يفتكون بعسكرنا،

وكأنّهم آلة لا تتعب ولا تملّ أبدا، وأنا متأكّد أنّ في قريحة كلّ واحد منكم خطابا وعتابا ومخاوف كثيرة حيال ما أقولُه، وقد بدر منّي في الآونة الأخيرة تساهل وتلاعب ولامبالاة ظاهرة، وقد تعمدتُ ذلك كي ينسى عدوّنا أنّنا نُحاربهم أو نرصُدهم، وقد نجح الأمر وصار يُشاع في المدينة أنّ الأشباح اختفوا وأنّ عسكرنا لا يكترثون بهم، وما خُفي أعظم، وجميعكم تعرفون أنّنا في كلّ ليلة ننتشل عسكرنا قتلى ونبعدهم عن أسوار المدينة كي لا تفوح رائحتهم بين الأهالي فتصبح وقودا لتمرّدهم وخروجهم عنّا، ويجبُ أن نحرص على أن نُخفي ضحايانا وقتلانا كي لا يسيء النّاس بنا الظنَّ ويتقوّلوا علينا الأقاويل، وأنا حريص على سمعتكم ومنظركم أمام عائلاتكم، وخاصّة أمام مكتبنا في الجزائر، وأنا لا أنكر أنّ ما مرّ علينا لشيء خياليّ بمعنى الكلمة، لكن يجبُ أن يكون له تفسير منطقيّ، فهؤلاء ليسوا إلاّ بشرا يحملون البنادق والأسلحة البسيطة.

فكيف أصبحوا هاجسا وكابوسا يقضّ مضاجعنا؟ وكيف استطاعوا أن يُقيموا نُسخة من المدينة في أعالي الجبال؟ وكيف استطاعوا أن ينقلوها كاملة في أقلّ من يومين فقط؟ ولقد بتُّ أؤمن بما يُشاع من لعنة وكرامات، ولقد قعدتُ كل هذا الزمن أجمعُ أراء بعض الأهالي وأسألهم بخداع ومكر، حتّى اكتشفتُ شيئا مهمّا وأمرا لا يُصدّق أبدا، وإنّكم الآن لتكذّبونني في أنفسكم وتسخرون منّي، فبعد بحث طويل تيقّنتُ أنّ هناك قوّة خفيّة تُساعد أولئك المتمرّدين، ومهما اختلفتُم في تسميتها ووصفها فأنا متيقّن أنّها موجودة وكائنة، وقد عرفتُ تماما كيف أقضي عليها وأبعثها إلى الجحيم».

حينها نطق كلّ من في المجلس بصوت واحد وقالوا:

كيف يا سيّدي؟

آنذاك ابتسم سيمون بخبث ومكر وقال بعدما قرّب رأسه للطاولة:

مبنى دار البارود.

فنطقوا مرّة أخرى بصوت موّحد مستغرب ذلك:

ما به يا سيّدي؟

بعدها واصل كلامه مُحاولا أن يشرح ما تفوّه به لسانه:

«اكتشفتُ أنّ تلك القوّة الخفيّة تنتشر من ذلك المبنى، ولقدُ كنتُ أمرّ به متعمّدا ذلك كل مساء فشعرتُ أنّه غامض ولعين، كلّ اللّعنة كائنة بذلك المبنى، ونحن نرصدُ أعداءنا في الجبال والصحاري الشاسعة؟ كم كنّا حمقى حينما اعتقدنا أنّه مُجرّد حجارة !

وقد تفحّصتُه جيّدا وقد لاحظتُ أنّ البئر التي بداخله هي المسؤولة عن كلّ ما يحدثُ لنا، وقد جمعتكم اليوم بعدما توصّلتُ لهذا الاكتشاف الكبير كي أسمع أفكاركم وآراءكم».

وحينها زلّ لساني بذلك الكلام المُخيف الذي قُلتُه:

سنردم البئر يا سيّدي ونهدم المبنى وننتهي من أولئك الأشباح.

شعرتُ أنّني تجرأتُ وغامرتُ بقول ذلك، خاصّة وأنّي متيقّن أنّ تلك اللّعنة تترقّبنا وتتوعّدنا بالموت والعذاب إذا ما أخطأنا في حقّها، ارتعدتْ فريصتي وانقبض قلبي وكأنّ يدا خفيّة شدّتْه بقوّة، وحاولتُ استدراك ذلك لكنّ سيمون نطق ساخرا:

ألستَ خائفا أن يُصيبك مكروه؟ ... لقد صمت الكلّ وتكلّمتَ أنت؟

وبدأ يُقهقه قائلا بصوت عال:

لقد قُضيَ عليك. لقد قُضي عليك.

ساعتها توّجستُ من سخريته الشيطانيّة، وتسرّب إليّ الخوف والهون، وأعدتُ استرجاع وجوه العسكر المقتولين الذين كنّا نجدهم كلّ ليلة في زمن مضى.

تذكّرت تلك الفتاة الملائكيّة قابعة أمامي، كانت تنظر لي غاضبة مقطّبة وكأنّها تريد مُعاتبتي على الذي قُلتُه... فصرختُ فيهم قائلا:

المبنى ليس له دخل فيما يحدث، ويجبُ أن يبقى شامخا وأن لا نمسّه بسوء.

فانفجرتْ القاعة بالضحك والسخريّة وراح الجميع يُواسونني، فتفطّنتُ أنّ سيمون تلاعب بنفسيّتي وجعلني أبدو كأبله مجنون بعدما تخافتوا بينهم بالخديعة، وبعدما مرّ ذلك كلّه وهدأ الجميع قال سيمون:

لقد تسرّب إلى داخلنا ذلك الخوف والجزع، وصار يقضّ مضجعنا ويسيطر على حياتنا، وليس ميشال وحده من يتوهّم أولئك الأشباح، كلّنا يحدث لنا ذلك وأنا أراه يشبه المرض النفسيّ الذي يستكين في الإنسان، ويتطوّر مع مرور الزمن، وليس له علاج إلا أن نُكذّبه ونسخر منه كلّما مرّ من مُخيّلتنا، المهم أريد استشارتكم في القول الذي رآه ميشال.

حينها وافقني لافار على ما قلتُ مضيفا أنّه سمع قصصًا كثيرة عن ذلك المبنى الملعون.

كلّهم يروون حكايات عن كرامات ذلك المبنى وأنّ حجارتها مباركة، وإنْ كان الذي يُصيبنا نابع منه فعلينا تهديمه، وردم البئر الموجودة بداخله، وعلينا بتسريع التنفيذ كي لا يعلمه الأهالي.

وحينها وافق الجميع على القرار، وشرعنا في تنفيذ الحكم وجهّزنا العمّال لذلك ووقتها تسرّب الخبر في المدينة، وانتشر بين الأهالي وراحوا يلوكونه في المقهى وتحدّثوا عن عذاب واصب لا ينقطع إذا حدث ذلك.

فقال أحدهم ذات مرّة بينما كنتُ هناك، وقد تعمّد أن يتكلّم الفرنسيّة كي أسمعه.

كلّ الهاربين إلى الجبل خرجوا من ذلك المبنى، وستغضب الأرواح المتمرّدة على القانون، وسيحلّ العذاب وسنهلك جميعا وهم لا يعلمون، وقد سمعتُ أنّهم يستصغرون الأمر ويجدونه هيّنا.

وقال آخر ساخرا:

الحجارة التي بُنيتْ في العهد التّركي تسبّبتْ بكلّ هذا الخراب والدمار!

ومشيتُ وسط الزحمة، وذلك الكابوس الفظيع وكأنّني أتبع العتمة وطريق الضياع ألمس ملامح أولئك الأهالي المُغتاظين والهائجين كنار تغلي، كان سيمون بعتاده وجنده في الضفّة الأخرى وحوله الغضب الذي يكاد يعصف بكلّ المدينة، وكما لم أشاهدهم من قبل كانوا

متوجّسين خائفين من الذي سيحدث، حينها خطب سيمون كعادته مُحاولا إقناع ذلك الجمع الغفير.

«لقد تفاقم الأمر ومرضت المدينة لسنين وأنتم تعرفون ذلك أكثر منّي، وقد قُتل من الأهالي كثير ومن العسكر كذلك، وإنّي أرى المدينة غارقة في الدماء لا محالة إذا لم نسرع ونتدارك الأمر، ولقدُ عرفتُ سرّ اللّعنة التّي شرّدت أهلكم، وقتلتْ منكم الكثير».

حينها نطق أحد الأهالي صارخا في وجهه:

أنتم من قتلتُم أهلنا وشرّدتم صغارنا، فعن أيّ لعنة تتكلّمون؟

حينها أكمل سيمون كلامه وكأنّه لم يسمعه مُطلقا.

«ولقد حكا لي الأهالي عن لعنة هذا المبنى «دار البارود»، بالإضافة على أنّه يُظهر المدينة بمنظر غير لائق، لذا قرّرنا أن نُهدّمه ونبنيَ مكانه تُحفة أثرية تليق بهذه المدينة الجميلة، ونُريدكم أن تُساعدونا في ذلك».

حينها تعال الصراخ والاستهجان لما قاله، وتقدّم شيخ مسن، كنتُ أراه لأوّل مرّة وكأنّه شبح نزل من السماء وبدأ في مُحادثة سيمون بلغة جريئة غير خائفة.

لقد سمعنا فيما مضى أنّكم فشلتم في مُلاحقة المتمرّدين في الجبال، كما قد شاع في المدينة أنّكم اكتشفتم أنّ هناك نسخة من المدينة، تُشبهها تماما وأنّكم لم تقدروا على الوصول إليها.

من أين أتيتَ بهذه الأخبار الكاذبة أيّها الشيخ اللّعين؟

حينها بدأ الشيخ يضحك بسخريّة مُحاولا إغضاب سيمون، وأردف قائلا:

«دار البارود» صارت مصدر قلقكم واضطرابكم الدّائم؟ ألا ترى يا سيّدي أنّ هذا ضرب من الخيال، وسيستهزئ بك الأجيال القادمة وسيقولون أنّك قد أصابك الجنون، فبدل أن تُحارب الخارجين عن القانون في الجبل، تريد أن تُهدّم مبنى خاليا بحجّة أنّ الشياطين تسكُنه.

وما أدراك أنّ المتمرّدين يتواجدون في الجبل؟

كلّهم يقولون ذلك، حتّى عساكركم يتخافتون فيما بينهم بذلك، ويخافون الاقتراب منه.

ليعلم كلّ الأهالي أنّ ما قاله هذا الشيخ هُراء، وأنّه ليس هناك خارجون عنّا فمذ أن قدمتُ إلى المدينة اعتقلتُهم كلّهم، أمّا ما يحدث فهو مرض لعين أو بالأحرى سحر قديم يتسرّب من هذا المبنى الشيطاني.

وماذاعن الفوج المتكوّن من مائة وخمسين عسكريا الذي أرسلتهم بقيادة رامون، هلّا أخبرتني أين ذهبوا؟ هلّا أخبرتني لمَ لم يعودوا حتّى الآن؟

من أين تأتي بهذه القصص الكاذبة، أنت تتوّهم فقط... ومن أنتَ؟ أنا لم أرك من قبلُ في المدينة؟

إذا كنتُ كاذبا فأين رامون الآن؟

لقد أرسلتُه لمكتبنا في الجزائر كي يقوم بمهمّة كلّفتُه بها.

بعدها أمر سيمون بإبعاد ذلك الشيخ كي يُكمل ما بدأه، ولمّا بدأ الهدم تدافع الأهالي وتشابكوا مع العسكر واختلط كلّ شيء، وتحوّلت المدينة إلى ساحة للمعركة وآنذاك لم يستطع العسكر السيطرة على الوضع فأمر سيمون بإطلاق النّار.

فأُصيب عدد كبير من الأهالي، وسقط آخرون كأوراق الخريف المتناثرة موتى ولم يُغيّر ذلك من الأمر شيئا بل ازداد الأمر فظاعة، فلقد ظهر خيّالة ملثّمون وراحوا يُهاجمون عسكرنا، كانوا يتنزّلون من السماء أفواجا أفواجا، ففزعنا من هول ذلك المشهد العظيم، وحاولنا الصمود أمام حركاتهم السريعة وكثرتهم فلم نجد لذلك سبيلا، ففرّ الكثير من عسكرنا إلى الوراء، وهم يصرخون بأنّ عذاب دار البارود قد حلّ بنا، ووقف سيمون مبهورًا متسائلًا عن الذي حدث، ووقتها رأينا الشيخ الذي كان يُجادلنا منذ حين قد امتطى حصانه، وراح يصرخ كالمجنون باحثًا عن سيمون:

«أين أنت يا سيمون...؟ أين أنت؟».

ففررنا مسرعين إلى الثكنة وأغلقنا بابها الحديديّ علّنا نستطيع الصمود، كنّا نسمع حينها صرخاتهم وهم منتصرون ونشعر بأرواحهم، وهي تحلّق كشبح أسود ملعون، حينها أسرع سيمون لسمّاعة الهاتف لاهثا، وطلب الإغاثة والمدد.

فأخبروه أنّ ذلك سيطول وأنّ عليه التحصّن في الثكنة والصبر، قُتل الكثير منّا وأُسر آخرون وتفاقم ذلك المرض النّفسيّ فينا، ومرّ ذلك اليوم ونادانا مساؤه بصوت هادئ عذب، فعرفنا أنّ المدينة خاليّة وأنّ أولئك الأشباح قد رحلوا، فمشينا مستغربين في المكان بعدما اختفت الجثث، ولم يبقَ أثر للدماء، فقلتُ لهم وكأنّي أبله معتوه.

لم يكن ذلك واقعا، ما هي إلاّ أضغاث أحلام استطارت من دار البارود، وما أشبه هذا الذي حدث لنا بتلك المدينة الخياليّة التي رأيتُها في الجبل.

ورأيتُ حينها بعض الجنود يشمّون غبار الأرض، ويمرّرون أيديهم على حصاها وحالما تشخص أبصارهم إلى السماء، يتضرّعون إلى المسيح كي يرفع عنهم ما أصابهم ويُسامحهم عن ذنوبهم الماضيّة، أمّا سيمون فقد بعث بالعسكر إلى الديار فجلبوا له من الأهالي شهودا، وسألهم عن الذي حدث، فأجمعوا على قول واحد وخبر يقين، قالوا أنّنا فرنا فجأة حينما كنّا نتدافع فيما بيننا، وكنّا نصرخ وقد أصابنا الفزع والهلع، واختبأنا خلف أسوار الثكنة كالمجانين، وأضافوا أنّ لعنة دار البارود قد حلّت بكم.

وحينها تأكّدنا أنّ جلفا مدينة تحرسها الشياطين منذ الأزل، وأنّ كل عسكرنا أصابهم مرض الوهم، وصاروا يتخيّلون حياة وشوارع أخرى، أمّا أنا فصرتُ أنسى كثيرًا وأتخيّل أشياء لم أفعلها من قبل، ورجعتُ إلى المحجر وزاولتُ عملي مُتناسيّا كلّ شيء، وكنتُ أسمع عن الثوار هناك في الشرق والغرب ولا أكترث لما يُقال، صار كلُّ همّي هذه الحجارة الملعونة، وهؤلاء الغرباء الذي يتوافدون إلى المحجر كلّ مرّة، كنتُ أفكّر دائما في إرسال برقيّة إلى مكتب الجزائر لأطلب فيها التوقّف عن العمل، والفرار بعيدا قبل أن يلتهمني هذا الوهم».

* * *

مكث جون اليوم الموالي كاملا في المنزل يشكو من آلام الضرب المبرح الذي تعرّض له، فكّر في كلمات الجنيرال ماري التّي أثّرت في تفكيره نوعا ما، خاصة اتّجاه أولئك البدو وانتمائه الفرنسيّ.

تصنّع ملامح جدّه وخرج لشوارع المدينة مستنكرا وجود الأهالي هنا، ونظر لتعابير وجوههم البسيطة والمُسالمة.

رأى تلك المرأة التي تجرُّ ولدها الصغير، والشيخ الذي يبيع الأعشاب الطبية، لم يكن يستطيع أن يكون قاسيا ولو لحظة واحدة، كانت كلمات عمته كلارا أكثر وقعا عليه حينما حكتْ له عن حبّ أبيه لهؤلاء الناس وتقربّه منهم، وقوله تلك الكلمة التي ما زالتْ عالقة في ذهنه «نحن في بلدهم ونحتلُّ حياتهم والأغرب أنّنا نصفهم بالإرهابين».

وفي المساء ككلّ مرّة كان هاجسه القديم يقوده إلى المحجر تلك الليلة المُزعجة فارًّا من ضجيج ذكرياته، وصوت النّاموس الذي راح يهدأ كلما اقترب من الصخرة، استلقى قربها يُراقب تلبّد الغيوم المُحيطة بالمكان.

لحظات طويلة استقرّت في داخله واستولتْ على روحه الخائفة، كانت تتدفقُّ ببطء في نفسه، وتشعره بالطمأنينة حيال الصخرة التي قتلتْ جده، أغمض عينه بشدّة فاختمرتْ روح الصخرة بروحه، وحكتْ له عن ماض لم يشْهده ولم يعرفه، وحقّ عليها القول في أن تكون الصخرة الأسيرة كرامة والسرّ الدّفين الذي غيّبتْه السنين.

الحكاية الأولى:

مذ أن وُضعت اللّبنة الأولى وهما كذلك صديقان وشريكان في العمل، كان الأخدود حفرة فازدادت عمقا واتّساعا، وهما كعاملين دؤوبين قرب السّور، أعطى أحدهما للآخر ميثاقا غليظا لا تشوبه الشوائب، وأزمعوا أن يرسموا دوائر صغيرة للحياة الجامدة هناك، فقد حرمهما الزمن الغابر أشياء كثيرة، وحجب عنهما صفاء السماء ونقاءها المعهود، وهذا حال كل أولاد المدينة غارقون في الصمت والكآبة.

الكثير منهم تعلّم الكبَرَ وهو صغير، وعلق أبجدياته كلّها، فلم تعد تغنيهم ولا تفقرهم تلك التجارب.

تذكّر الولد الحوّاس حينما كان رفقة صديقه في شارع لامارتير وهما يتبعان أولئك الجند المتبجّحين في مشيتهم، كان يطالع ملامحهم الأوربية الساخرة من كلّ شيء رأى من أحدهم نذالته وهو واقف عند شيخ كبير، وخاطبه مقّلدا صوته المرتعش وهو يهمز مع أصدقائه إشارات سوء، ومضى إلى طاولة أخرى وعيناه تبرقان جورا وظلما، فزعم أنّه يبتاع كساء أحمرًا معلّقا منذ زمن بعيد، ولا جرم أنّ بائعه المسكين راح يجادله في تلك المساومات الكاذبة، ويعرض عليه السّلعة وصفا متقنًا، وفي آخر كل ذلك أخذها غصبا، واعتدى على البائع المسكين ضربا فأصاب الحوّاس غيظ دفين والتقطت يداه الصغيرتين حجارة، وقلّده فيما فعل صديقه بشير، ورموا أولئك الجند بها صارخين وفارّين كسحابة ملبّدة بالغيوم وتبعهما الجند وهم مصرّون على تأديبهما، وتهامسوا فيما بينهم بالمكر والخديعة.

لكنّ يد السماء كانت أطول من أيديهم وأرفق عليهم من بطشهم، فقد اختبئوا في أخدودهم الصغير خلف السور، وقد غطّياه من قبل بلوح خشبي كبير، وتخافتا في الظلمة وأحدهما يشكو لصاحبه وفاة أبيه فقال:

«لم أنس تلك الليلة الباردة حينما تسوّر العسكر دارنا، وقادوا أبي غصبا من بيننا ولم تمرّ أيّام فقط حتّى رجعوا كرؤوس الشياطين، وأخبرونا أنّه قد فارق الحياة مرضا وأوصى أن نصون الوطن الحبيب

فرنسا على زعم ذلك الجندي الماكر فقامت أمّي وقد فاضت منها الدّموع صارخة في وجوههم».

«قتلتموه أيّها المجرمون..لعنكم الله ولعن بلدكم فرنسا»

فواسى صديقه ووعده بمستقبل قادم، وفجر جديد لا تشوبه الشوائب ولا تكدّر صفوه الذكريات، وخرجا من الأخدود يجريان متّجهين إلى المدينة، فصادفا قطيعا من الغنم، فطلبا الإذن من قائدها وحلبا واحدة منها، فشربا منها حتى أصابهما الخدر فناما قرب شجرة النبق العتيقة، وباتا هنالك في العراء لاتقربهم وحوش البريّة، بل تمرّ من مرقدهما مستأنسة ومتفائلة بغد جديد، وظلّت عيونهما متسلّقة بروج السماء، وهمس أحدهما للآخر بأن يزورا المحجر القديم فيحظيا بجولة كما هو ديدن الأيام الخوالي، فذهبا هناك وطافا بالمكان واندهشا من الصخرة الشرقية كيف صارت خُطاما، وصعدا للقمم العالية وراحا يُعاودان تراتيل الجهاد والقتال ومرّ الزمن كبقيعة سراب وصار صديقه بشير أيضا ملبّدا بالغيوم بعدما حرّق العسكر مزرعة أسرته الصغيرة، ونقلوهم غصبا إلى أقصى الصحراء، ففزع وجزع وراح يبحث عنهم دون جدوى، فلقد نُفوا بعيد ورحلوا كما رحل قوم الجيتول مذ سديم السنوات الماضية، وخلّفوا وراءهم وحشة الأيام ووقع الخواء والصمت الذي يكاد يعصف بمدينة جلفا فيذرها قاعا صفصفا.

وعاد بشير إلى السّور غضبان أسفا بعدما حدث الذي حدث، وتسمّر أمام صديقه أبكم كأنّما التقم لسانَه الرحيلُ، وانكمش وعيناه تفيضان بالدّموع، فواساه وهمس في أذنه بأنّهم عائدون لا محالة،

وأنّهم لن ينسوه أبدا وسيعودون للبحث عنه، وسارت الأيّام وهما لا يفترقان، يتجوّلان المدينة خطوة بخطوة، فتطرب أسماعهما بحكايات المقهى العجيبة، ويتسللان لقاعة الحفلات الكائنة هناك، ويندّسون مع الأوربيين يقلّدان مشيهم وكلماتهم الفرنسية المتبجّحة، ثمّ يعودان مسرعين إلى المقهى حينما يلحظان الشيخ نائل قد أخرج كرسيّه الخشبي القديم وقعد مرسلا نظراته لزوايا المكان متفقّدا الحضور، فهو صاحب الكرامات كلّها وعائلته السرّ الرباني الذي طالما أحبّه النّاس، يسرد قصصا من الزمن الغابر ويُسأل في الأنساب والقبائل المجاورة فيجيب، سَمعا منه مرّة حكاية فقال:

«كان جدّي شيخا له نور عجيب، سكن قصيّا في زاوية قديمة وكان تقيّا وحكيما أيضا فورثتُ ذلك عنه، ولقد وجد صناديق ذهب خالص من العهد التركي فلم يلمسها ولا أخذها لنفسه، بل فرّقها على القبائل كلّها وخصّ بها المساكين منهم وكان بهيّ الخلقة طرب الكلام وله كرامات كثيرة شهدها القاصي والدّاني، وإنّي لا أفاخر به ولا أعاظم، إنّما أروي ما رأته عيناي، وقرأته في مخطوطاته التي كتبها وقد أخبرني أبي أنّه مرّة صام عشر ليل متتابعة ولم يحدث له سوء ولم تحلّ به نازلة، وإنّما ذلك لأنّه وليّ صالح وهؤلاء الأولياء يحبّهم الله ويختصّهم بقدرته وعجائب صنعه، ولا تصدّقوا من قال لكم أنّ جدّي حلّق ذات مرّة في السماء، فأنا لم أقل ذلك وأحكه أبدا، وقد سمعتُ همسا خفيّا بأخبار لم أقلها ولم أروها أبدا».

وكانَا يغرقان في أحاديثه حتّى ينتهي من كلّ ذلك، فيرحل الكلّ راضين متفائلين بالكرامات الّتي بشّرهم بها جدّه نائل الأكبر.

وذات مساء عادا للسّور ككلّ مرّة وتفقّدا الخندق الصغير وتجادلا في توسيعه وحفرا قربه خندقا آخر يُضاهيه حجما وطولا، وقبل أن يُكملا الكلام حتّى سمعا وطأ أقدام قادمة وضحكا من بعيد، فعرفا أنّهم الجنود وتخافتَا فيما بينهم:

– انزل يا الحوّاس عن السّور، لقد قدم الجنود إلى هنا وهم يقتربون منّا.

– لا تخف نحن لا نفعل شيئا يجعلنا نفر منهم، ثمّ لماذا يلاحقوننا أينما ذهبنا، لقد طردونا من المدينة وكأنّنا لسنا منها، ماذا يريدون الآن منّا؟

– أعرف ذلك الجندي الطويل، لقد دفع عجوزا وسط المدينة، ولم يكترث عندما سقطتْ أرضا.

–أنظر يا بشير هو ينادينا.

– اهرب ...اهرب

جريًا خلف السور وصراخهما كاد ينقطع من الخوف، فتخافتوا بينهم وسددّوا بنادقهم فجأة، وانتشر دوّي الرصاص كريح صرصر عاتية، وراحوا يضحكون سخريّا منهم، وللحظة توقّف بشير وارتمى على الأرض كمجنون يعانق صديقه الحوّاس، فقد طفا بجسمه النحيل على الأرض ميّتا وساد صمت مهول وسط صراخ الجنود.

– أيها الأحمق، ألم نقل أنّنا نتسلى فقط لماذا قتلتَه؟

وعاد بشير بجثّة صديقه إلى خندقهما الصغير وظلّ صامتا متسمّرا زمنا طويلا ودفنه هناك ناثرا على قبره قبضة غبار من الأرض التي تقاسمها لوقت طويل ولم يطق البقاء وحده في المدينة، ولا مجابهة

أمكنة تشاركاها معا، فأزمع الرحيل واختفى بعيدا خلف الجبال، هناك حيث يتواجد الثوار وأشباح مدينة جلفا.

* * *

الحكاية الثانية:

سلكوا طريقا جبليا محاطا بالأشجار، كانوا يلاحقون خيوط الضوء قبل أن يبتلعها الظلام، وساروا في أناة ووقار كأنّما يُزّفون إلى النعيم، تخافتوا فيما بينهم بأنّ الخطر محدّق بهم وأنّ العدوّ يكاد يطوّقهم، لكنّهم تفاءلوا بالهجوم الذي قاموا به وأيقنوا أنّه الغضب الذي لن يهدأ في دواخلهم والنار التي لن تنطفئ أبدا ما داموا على قيد الحياة، كانوا قبلها قد هجموا على الثكنة العسكرية الواقعة بالبرج، ليلتها تقدّموا كالأشباح اللّيلية هناك وطوّقوا المكان.

كان «عمر» يراقب من بعيد تحرّكات جنديين منهم، وهما يتسامران في الجهة الشرقيّة من الثكنة وقد كانا ثملين على الأرجح، بينما كان بقيّة الجنود في قاعة الحفلات التي لا تبعد كثيرا، كانوا منشغلين بعرس صديقهم ومنهمكين في الرقص والغناء، وقد اختار الأشباح هذه الليلة بالذّات حتّى يكون درسا لهم وانتقاما لأفعالهم الشنيعة التي تدوّي كل يوم في المدينة، فتجعل أهلها فزعين ومختبئين في منازلهم، وقد خطب فيهم قائد الأشباح في تلك الأيّام قائلا:

«إذا كانوا يريدون بأفعالهم الشنيعة هذه تخويف السكان، وإرهابهم كي لا ينضمّوا إلى المقاومة فسنوقفهم عند حدّهم، ويجب علينا ردّ فعل يكون مماثلا وأكبر، كي لا يفقد السكّان الثقة فينا.

قد وصلتني البارحة رسالة من جهات قيادية وأخبروني أنّهم سيساعدوننا في مقاومتنا وأنّهم لن يتخلّوا عنّا، وتعلمون أنّ المؤونة لا تكاد تنقطع عنّا وأنّ هناك مجموعات كثيرة تتواصل مع بعضها كي تكون المقاومة منظّمة ومنسّقة، لذا ستُقسّم مجموعتنا هذه إلى مجموعتين، الأولى ستصعد متّجهة للزاوية والمجموعة الأخرى ستهاجم الثكنة وسيكون فيها عمر وبلقاسم والطيّب وعلّي ومبارك وبو بكر ودراقة، وقد علمنا أنّ الليلة سيقام حفل في القاعة وسيجمع كل الفرنسيين هناك، وستكون لكم الفرصة مواتية والطريق آمنة، قوموا بالمهّمة المُوكّلة بكم ثمّ فرّوا ناحية الطريق الجبلي المؤدّي للزاوية فهي آمنة».

وبعد أن وصل الأشباح السبعة للمكان، تلثّموا وتحرّكوا بمسارات دائريّة حول الثكنة تماما كما كانوا يفعلون كلّ مرّة، كانوا مسرعين جدّا في حركاتهم ومخيفين جدّا والسماء ملبّدة بالغيوم والسكون يجتاح أركان الثكنة.

وسرعان ما نالوا من الجنديَّيْن الثَّمِلَيْن، وتسوّروا جدران الثكنة الجنوبية، وتقدّموا كالخفافيش المتعطّشة للحياة، فقتلوا ستة من الجنود وتجاوزا ساحة التدريب بعدما خرّبوا أدوات التعذيب، وتلك الأخشاب المسنّدة الشاهقة التي كان يُعلّق فيها الثوار ودخلوا الممرّ المفضي للمكاتب وأضرموا فيها النّار، سرعان ما أسرعوا في الخروج بعدما سمعوا صفّارة بالجوار، فعرفوا أنّه قد اكُتشف أمرهم وأنّ الجنود سيعودون من القاعة بعد وقت قصير.

فخرجوا مسرعين وتوغّلوا في الجبل حتّى يلحقوا بالمجموعة الأخرى، لكنّ صوت شاحنات قادمة من الجهة الشماليّة جعلهم

يغيّرون الطريق، ويسلكون طريقا آخر لصعود الجبل، وكانت قارعته مكشوفة ووعرة فسهّل على الفرنسيين اللّحاق بهم، فتبعهم القائد دي سوني رفقة عشرين جنديا، وطاردوهم في تلك الليلة الباردة وطوّقوا المكان منتشرين في صفّ واحد، وظلّوا زمنا طويلا يبحثون عنهم، وبينما كانوا يواصلون صعودهم توقّفوا برهة بعدما جثا عليّ على ركبته وقد كان مُصابا من قبل بمرض، وكان سببه البرد القارص حينما كان في منطقة بعيدة عن الجبل وهو ينتظر قافلة المؤن القادمة من الغرب.

– هو يشكو آلاما في بطنه ولا يقدر على المسير أكثر.

– لا يمكننا الانتظار، سيجدنا دي سوني وجنوده المنتشرين في الجبل.

– ماذا علينا أن نفعل يا الطيّب.

– سنحمله بعيدا عن هنا.

– مهلا، صوت خطوات مسرعة قريبة منا.

«الجند يحيطون بنا من كل جهة»

– لقد نفدت ذخيرتنا ولا نستطيع مواجهتهم.

وساعتها بدأت المعركة وأضاء الجبل بضوء البنادق فدامت زمنا طويلا، والحق أنّ القوتين لم تكونا متوازنتين، كان السبعة متفرّقين ومنتشرين حتّى يوهموا الطرف الآخر أنّهم كثرة وأنّهم لن يستطيعوا النيل منهم، لكنّ ذخيرتهم نفدت مع طلوع الفجر، فهدأ المكان وعرف دي سوني ذلك فهاجمهم واعتقلهم.

وقام دي سوني بمحاكمة لهم صبيحة تلك الليلة، وقد حكم عليهم بالموت علنا أمام النّاس والعسكر رميًا بالرصاص على أن

يكون ذلك صبيحة الغد، وتهامس مع صديقه خفية عن الجنود بأمر مريب، واقتاده للمكتب وأخبره بالحقد الدّفين الذي أوغل صدره، ولم يستطع إخفاء غيظه فصرخ قائلا:

«كيف يستطيع هؤلاء البدو قتل جنودنا وتسوّر الثكنة والعبث بمكاتبنا، من يساعدهم على ذلك ومن يُوقد فيهم هذه النّار الجامحة؟... الذي لا تعرفه أنّي أخفيت جثثا كثيرة من جنودنا قُتلوا ليلا في زمن مضى كي لا يتسرّب الخوف في عسكرنا ويكتسب الأهالي ثقة ستهزّنا وسترسلنا إلى الجحيم، ماذا أقول الآن للحكومة إذا رنّ الهاتف وهم يستفسرون عن الذي حدث، أأخبرهم أنّهم قتلوا ثمانية جنود وخرّبوا الثكنة؟، ماهذا الذي يحدث لنا؟، أشعر أنّ عدوى التمرّد بدأت تتفاقم وتستفحل، الذي يحيّرني أنّ الأهالي هنا دائما صامتون، ومُشتغلون بتجارتهم ورعيهم... فمنْ هؤلاء الرجال المتمرّدون الخارجون عن القانون؟ لا شكّ أنّهم ليسوا من المدينة، سمعتُ أنّهم جلبوا أسلحتهم وعتادهم من الغرب».

بعدها تنهّد قليلا وابتسم بخبث مردفا:

«أتظنّ أنّي حكمتُ عليهم بميتة عادلة؟... سيرى هؤلاء الملاعين كيف يكون العذاب الغليظ، أريدك أن تحضر معي العذاب غدا وأحضر معك جنودنا فقط، ولا تُخبر البقيّة فقد يشون بنا».

وفي اليوم الموالي حضر دي سوني وصديقه، وهما يتهامسان بالخديعة وجرّوا معهم بعض الجنود الحمقى، وقيّدوا الأشباح بالأغلال وقادوهم إلى مكان بعيد.

حيث كانت هناك حفرة عميقة جدا، أنزلوهم هناك وراحوا يتفنّنون في تعذيبهم والتنكيل بهم، وأخذ مجرى التحقيق مسارات مختلفة بعدما أصرّ دي سوني وعيناه ترميان بشرر أن يعرف من كان وراءهم، لكنّه لم ينجح في ذلك فقد كان الكتمان عنوانهم والصبر سمتهم، ولم يستمرّ الأمر طويلا فقد كان دي سوني مضطرا إلى الإسراع فيما كان ينتويه، وصَرخَ في الجنود فأتوا بأكياس الرمل، وراحوا يلقون عليهم الرمل ببطء شديد، وكان دي سوني يقول:

– سأقتلكم ببطء حتى تعرفوا فظاعة ما قمتم به، تريدون أن تعيشوا وحدكم في هذه الأرض.

تلاشت الأضواء وصمتت كلمات دي سوني، فلقد غطّى الجند الحفرة ووضعوا فوق الغطاء الحديدي كثيرا من الحجارة، ثم رحلوا بعيدا عن المكان، كان الهمس ينتشر تحت الأرض كدبيب النمل، وفي المطمورة تكلّموا زمنا طويلا وأبحروا في الحكايا القديمة، فَرَووا قصصهم كلّها، تذكّروا أجدادهم ورحيلهم في تلك القفار البعيدة حينما طاردهم الجنود الفرنسيون في عمق الصحراء، وتلوْا من القرءان آيات عجيبة (والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا)، فتذكّروا غبار جيادهم وضبحها وتنشّقوا أنفاسا من الثلث الأخير من اللّيل، وابتسموا كإشراق الفلق حينما بشّرهم الطيّب أنّهم يشبهون أصحاب الكهف في كلّ ما فعلوا وأنّهم سيمكثون سنينًا هنا حتّى تطول لحاهم وشعورهم، فيقومون من الأجداث سراعا وقد نبشوا الأرض بأظافرهم الطويلة معانقين ضوءا أبيضا مشّعا ووطنا لا يشبه الوطن الأوّل، وهمس في أسماعهم أنّهم سيستيقظون وقد رحل الفرنسيون

وعادوا إلى ديارهم خائبين، وسيلتّف الناس من حولنا وسيسألوننا كثيرا، ولرّبما يكون أوّلها أين كلبنا، كما روت القصص القديمة عن أولئك الرجال، ولن نجد ما نلفظ به لأنّنا أشباح كما سمّينا أنفسنا دائما.

ومرّ الزمن وظلّ همسهم لا يخفت لحظة واحدة، بل يزيد اتّساعا وعمقا في كلّ سكان المدينة، فبعد ما تسرّب الخبر للأهالي بالذي حدث لهم، انتشرت الفوضى في المدينة وصحا أحفاد الجيتول من سباتهم، وتحوّلت المدينة لبركان ملبّد بالحمم والنيران، ونُفي دي سوني رفقة صديقه وأولئك الجند بعدما كُشف أمرهم، وكانت هذه الواقعة القطرة التي أفاضت المدينة، فغدا كلّ أهلها خارجين عن القانون ومتمرّدين، أمّا بقيّة الأشباح فقد اعتكفوا في الجبل، والتحق بهم مئات الثوار وقد تلقّوا مددا من الأسلحة والعتاد، ودُق ناقوس الحرب ولم يعد بالإمكان التراجع ولو خطوة واحدة».

* * *

استيقظَ جون مُرتعشا على أصوات أولئك الرجال، وهم يُرسلون بصلواتهم ودعائهم، لم يفهم ما الذي حدث له، كوابيس وأصوات وقصص كثيرة استولتْ على عقله ومخيلته.

بدا له الصوت البعيد يتجلى شيئا فشيئا، وتلك الحجارة تنزاح عن مكانها مُرسلة رمالا تسقط على رؤوسهم، كان صراخ جون يقود الولد إدريس إلى المحجر حينما كان عائدا ليلا مع أغنامه، فتوجّس من صوته المفزع لكنه حالما شاهد جون يتعارك مع نفسه مُعانقا الصّخرة الأسيرة، أشفق لحاله وتوجّه نحوه مُحاولا إيقاظه:

– سيدي ما الذي حدث لك، هل تشكو من شيء ما؟

وما إن اقترب الولد من الصّخرة حتى هدأ جنون جون، وهدأتْ الحكاية في داخله. رأى كل شيء هادئا كما للمرة الأولى.

– سيدي ما بك كنت تصرخ؟

– من أنتَ ولما أنتَ هنا، لا تعرف أنّ هذا المحجر غير آمن في الليل.

حينها ضحك إدريس بشدة قائلا:

– أتظنّ أنّي ما زلتُ صغيرا، لا تقلق عليَّ، أنا أُرافق أغنامي كل ليلة وأستأنس بها أقصُّ لها فتسمعني، هي كل ما تبقّى لي من عائلتي، لا عليك سيدي أنا اسمي ادريس وأنا ذكي جدا، أتعرف أني عبرتُ من النفق الموجود وسط المدينة وخرجتُ من ناحية كافاريلي ولم ينتبه لي أحد، كنتُ أسمع ذلك الجندي الغبي يتحدُّث عن اشتياقه لامرأة شقراء رآها خارجة من الكنيسة، كانا غارقين في تلك القصّة، ووقتَها تحرّكتُ بخفّة وعبرت، حتىّ أنّ أصدقائي لم يصدقوا ما فعلت.

– كُفَّ عن الثرثرة، ما هذه القلنسوّة التي تضعها على رأسك؟

– أنا أحبّها، هي تشعرني أنّي أكبر سنا، أصلا أنا لم أكن صغيرا أبدا... لا سأقول لك الحقيقة، لقد بكيتُ مرّة عندما وقفتُ بقبر جدّتي، لقد ذرفتُ دموعا قليلة، فقد تذكّرتُها وهي جالسة في الخيمة تُداري عنّي بكساء حينما كان أبي غاضبا مني لرفضي رعي الأغنام معه، كنتُ أكرهها كثيرا لأنّها تسترسلُ في مشيها اللاّمبالي غير مكترثة بي، لكنّي الآن أنا أحبّها كثيرا فهي الوحيدة التي تفهمني، أنظر يا سيّدي هي باقية هناك تنظُرني.

استأنس جون لحديثه وراح يُطيل الحديث معه، كان ولدا خفيف الروح، ثرثرته القريبة للمزاح أشعرته بالارتياح، وأزالتْ عنه كوابيسه وصوره المُفزعة، لكنّه أحس فجأة بأنّ صورته مألوفة، وقصّته قد وردتْ في ذلك الكتاب الخشن، كانتْ حركاته تُشبه ذلك الولد الهوّاري الذي قتله جدّه، فاستغرب لوجوده هنا في مثل هذا الوقت، ثمَّ أشاح بوجهه كي يرى تلك الأغنام التي تحدّثَ عنها، كان الظّلام يملأ الوادي فلم يستطع رؤية شيء، وآنذاك اقشعرّ بدنُه وراح يهمس كالمجنون في أُذن الولد إدريس:

– أعرفُ أنّ اسمك الهوّاري... لقد خرجتَ من هذه الصخرة، لقد قال لي جدّي أنّه رأى روحك تتجوّل هنا.

حينها فرّ إدريس مُتوجّسا من جنونه المُفاجئ وقد قال خائفا:

– لا يا سيدي أنا إدريس، عن أي صخرة تتكلّم؟ لماذا تُحاول إخافتي بكلامك هذا؟

* * *

الحكاية الثالثة:

تجلّى الغبار وحلّقت غيومه الملبّدة في السماء كأنّما تسارع الموتى من الأجداث واتّسعت الأرض بقدر مهول، واجتاح المحجر سرّ الآلهة فغدت كساحة حساب وبُعث قوم الجيتول من جديد كما كانوا أوّل مرّة، ويُحكى أنّهم في القرون الخالية كانوا أولياء صالحين تُرفع أيديهم إلى السماء فلا تُرّد ولا ترجع خائبة أبدا، كانوا يشبهون الكائنات الضوئية المتنقّلة باستمرار، سكنوا خيمة حمراء واسعة جدّا، قيل عنها أنّ سقفها مرفوع وداخلها معمور منذ أمد بعيد.

كانوا يرتدون عباءات بيضاء ناصعة، وبدا المحجر في ذلك اليوم كبيت خرب عشّش فيه البوم ونخر تربته غبار عجيب، راح يتّسع ويسكن كلّ شيء، ولم يستطع أحد ترويضه، كان كجواد أسود سكنته الشياطين وراح يعدو في العراء مبتعدا كأنّما اللّعنة تحرّرت وشبح المدينة أصبح واقعا، كان من الواضح أنّه قد اختبأ في الصخرة منذ زمن بعيد، وقد فُكّ وثاقه بعد الذي حدث، فطاف كلّ المدينة مُحلّقا ومشى بجانب السّور كطفل صغير، ووقب بناية دار البارود الشامخة وتسللّ إلى بئر المدينة ليلا.

والحقّ أنّ الحادثة كانت غريبة والأمر بدا مذهلا، فحينما كان الضابط ميشال جالسا تحت صخرة في المحجر وقد أبرز أنيابه المتغطرسة، وأعلن غضبه الدائم على أولئك المساكين، فوزّع الشتائم ورفع السوط ارتفاعا لا يستهان به، وجال وصال في معمله صارخا كأنّما قامت السّاعة، فلقد كان حريصًا على أن يسلّم كلّ الشحن اليوم وينتهي من الرسائل المنذرة التي تأتيه، فلم يتمالك نفسه وانهال على أحدهم ضربا حتّى غطّاه دم أحمر قان، ومرّ لآخر يعاقبه أشدّ عقاب، فأمره برفع إحدى رجليه وقابله لأشعة الشّمس الحارقة، وانهال عليه بالسّوط، ووقف وسط السّاحة كالمجنون قائلا:

«منذ شهر وأنا أحذّركم وها قد أرسلوا لي إنذارهم الأخير، وأعرف أنّ مكتب المدينة لا يعبثون، فقط طردوا من قبله صديقي وشمتَ فيه الأعداء، وها أنتم تتعمدون تهاونكم وخمولكم هذا، لكنّي أقسم أنّكم ستندمون وسأذيقكم المرارة تتلوها المرارة، وكأنّه الغبار الذي انتشر فجأة فأصابه ونال منه.

كان يكلّم نفسه ويُكلّم الصخور ويكتب في سجلّه دون توقّف، وكأنّ خبرا يقينا همس في أذنيه، وتخافت مع عبده الزنجيّ لغة غريبة لم يعتدها منه، وأخبره أنّ هذه الأرض ملعونة وأهلها شياطين ونصحه بالهرب والفرار بعيدا عنها قبل أن يُدركه الطّوفان، فتسمّر العبد أمامه واندهش من قوله، وأشاح بوجهه للأفق البعيد فمشى بخطوات مرتجفة راحلا عنه وكأنّه لم يسمعه، لكنّه أصرّ وناداه مرّة أخرى بصوت عال وأمره بالرجوع، فعاد العبد ماثلا أمامه وقد نطق على مضض «أيّ طوفان تقصد... لم أفقه ما عنيتَه سيّدي».

وفجأة احمرّ وجهه وانتفختْ وجنتاه وأنكر كلّ شيء مردفا:

«من أين تأتي بهذه التّرهات وما حكاية هذا الطّوفان أيّها الزنجي الحقير».

فأوجس العبد منه واقشعرّ بدنه وظنّ أنّه قد جُنّ ربّما أو أصابه شيطان مريد.

وظلّ على هذه الحالة وقتا طويلا، يفعل الشيء ويخيّل له أنّه لم يفعله، ويقول قصصا عن الطّوفان وعن الجيوش القادمة للمدينة، وهكذا جرت الأمور يومها.

وقد أدرك كلٌّ من في المحجر جنونه ونباحه الغريب، وعند المساء جلس لاهثا من هول ما أصابه مستظلا تحت صخرة عظيمة، وخيّم الصمت عليه فلم ينبس بكلمة واحدة وظلّ مترقّبا أمرا ما، ولم يمرّ وقت حتّى هوتْ عليه وأردتْه قتيلا، قتلتْ تلك الصخرة الضّابط ميشال، وما دفَعَها أحد ولا حرّكها، فقد كان الجو صحوا والمحجر

هادئا، فانتشرتْ الفوضى وهاجم العمّال الجنود محاولين الفرار، ففرّ منهم قليل وقتُل آخرون، أمّا العبد الزنجي فقد فرّ صارخا بأعلى صوته في العراء مردّدا:

«الطّوفان... الطّوفان».

وذاع الخبر في البلاد كلّها، واجتمع الفرنسيون لهذا الأمر الجلل، وتهامس أهل المدينة بأنّ بركة الجيتول قد عادت، وأنّ كراماتهم قد بُعثت من جديد، فتفاءل النّاس كلّهم ونطق الساكت عن حقّه بعد صمت طويل، وتغيّرت طباع الأهالي أيّما تغيّر، فتحرّك الجاثمون ونطق الخرس وأبصر العميان، وكأنّ عصا موسى عادت للحياة، وهمس رجل في المقهى قائلا، وقد طفرت منه الدّموع:

«حتّى الصخور ملّت ركودكم وجبنكم، فدافعتْ عن مدينتكم بدلا منكم، فما بكم كالرّماد لا يستهويه نفخ ولا تعلوه نار».

وقرّر المكتب الفرنسي محاكمة الصخرة حتّى يرهّبوا السكان ويحرقوا في أنفسهم تلك اللّعنة المتحرّرة، فحدّدوا يوم مُحاكمتها وقد أوصوا بعضهم بعدم التهاون في ذلك، وتكلّم القائد دي سوني بكلام حاد وهمس كعادته ماكرا:

«سنُحاكمها ونقتّص منها حتّى يُدركوا أنّنا لن نتهاون حتّى مع الجماد، فتتراجع النّفوس الطامعة وتهمد الأصوات التّي تحرّض على الفتنة، ولتكن مُحاكمة عادلة».

تلاشت كلماته خلف تلك الأشعة الحارقة، وسط زحمة من الجنود ومئات من الناس يُشكّلون حلقة واسعة، كان داخلها القضاة

جالسين وهم على أهبة الاستعداد لبدء المحاكمة، وحينها تقدّمت امرأة رفقة ابنها الصغير وتخطّت الرقاب والصفوف المصغية لحديث ما، وأشارت إلى دي سوني بغضب شديد هامسة في مسمعه الصغير:

«ذلك هو الرجل الذي قتل أباك».

وابتدأت المحاكمة واستغرب الحضور من الأهالي كثرة العسكر وحرصهم على معاقبة هذي الصخرة التي لا تشعر ولا تعي شيئا، وتخافتوا فيما بينهم بأنّ ذلك أمر مريب، فكيف للصخرة أن تُدان، وكيف للجماد أن يقتل البشر، وتكلّم نائل حكائي المقهى دون أن يسمعه الفرنسيّون:

«هم يعرفون جيّدا أنّها الكرامات وليست مجرّد حادث عابر، فقد جرّبوا ذلك قبل سنين خلت، ولا شكّ أنّهم خائفون جزعون، وأنّهم بفعلتهم هذه يُريدون عقاب الروح التي داخلها وقتل البركة التي فيها».

– أيها المارشال دي سوني، من كان شاهدا على هذه الجريمة؟

– كل العاملين هنا، رأوا ظلم وجرم هذه الصخرة في حق الضابط ميشال.

هكذا نطق دي سوني جازما وحازما.

ووكّلوا مُحاميا عنها حتى يدفع عنها الجور، وينطق بلسانها كما كانوا يدّعون فضحك الأهالي كما لم يضحكوا من قبل وراحوا يثرثرون، وتقدّم دي سوني للمحامي مخاطبا إيّاه:

– هل تريد التكلم أيها المحامي، هل تستطيع أن تدافع عنها، وهي التي زهقت روحا وخانت وطنها فرنسا، أم أنّ لك وجهة رأي أخرى تريد البوح بها أمام كل الأهالي.

فتكلّم حينها المحامي بحزم ونفاذ قائلا:

– أرى أنّ العمل الدائم في المحجر أدّى إلى تشقّق الصخرة ببطء، وقد صادف سقوطها موت الضابط ميشال، وأنا أرى أنّ الأمر يستدعي التخفيف عنها.

قالها بسخرية وكأنّه تقصّد أن يطيل الأمر، ويجعل الأمر جدّيا وقصّة تلوكها الألسن كل عام، فبادله دي سوني الحديث لامزا:

– لا عُذر لها في ذلك، فقد كان الجوّ صحوًا والمكان هادئا، وأخشى أنّها صخرة لعينة تسكنها الشياطين.

تعالت الأصوات المُنكرة في المكان، وكثر الهمس بين النّاس، فلم يستطع القاضي السيطرة عليه إلا حينما أمر بإطلاق النّار وترهيبهم به، ليُعلن القاضي في الأخير عن حكمه النّهائي:

– لطالما كانت فرنسا ديمقراطية وعادلة حتى في حق الجماد، فإننا نطبّق على هذه الصخرة الواقعة على الجبل الأحمر محاكمة عسكرية عادلة، وبعدما تبيّن أنها مجرمة في حق المارشال ميشال وثبتت جريمة القتل بالأدلة، نحكم عليها بالأسر بالأغلال والأوتاد لمدة خمس وثلاثين سنة، مع تعذيبها وإطلاق الرصاص عليها تزامنا مع تاريخ وموعد الحادث... «انتهت المحاكمة».

وحينما كان دي سوني يجرّ الأغلال متّجها نحو الصخرة أصابه حجر من ذلك الولد في رأسه، فاتّجه الجنود نحوه وأرادوا أسره، لكنّ الناس وقفوا في طريقهم وتشابكوا معهم، بالحجارة والعصي وبعدما تفرّق الكل عائدين للمدينة، رموا بأغلالهم الحديدية حول الصخرة ورصّوا الأوتاد حولها، ثم بدؤوا وسط ضحك هستيري بإطلاق النّار عليها.

* * *

الحكاية الرابعة:

أنشأ سي الجيلاني قبيلته منذ أمد بعيد، وقد سكنوا قرب وادٍ بعيد عن مدينة جلفا وكان السبب في ذلك الاعتداءات الفرنسيّة المتكرّرة، وفرضهم لقوانين جديدة عن الأهالي واستعمال العنف في تطبيقها، وكان هذا الرجل شيخًا لزاوية، وذا صيتٍ مستطيرٍ في المنطقة، فقد رفض منذ بداية الاستيطان التّدخّل الفرنسيّ في تأسيس قبيلته، وقرّر أن تكون دولته الصغيرة المتكوّنة من أكثر من مائة وخمسين خيمةٍ متنقّلةٍ للأبد، كما هو حال قوافل النّور التي لا تواجه العتمة أبدا، وتبقى مرتحلةً فارّة في أقطار الأرض.

ولقد كانت أفكاره عظيمةً ونظرته ثاقبةً للمستقبل، فكان يعلّم الأولاد ويدرّب الشباب، وقد أسّس مكتبًا صغيرًا للتجارة، وكان من مهامّه إحصاءَ المواشي والأبقار، وتوفير الأسواق البعيدة الموجودة في أقصى الصّحراء، وقد كلّف مجموعةً من الشّباب بتوصيلها للقبائل الأخرى، حيثُ يتّم ذلك في سرّيّة عن العسكر الفرنسيّ، الّذي كان

يقطع الطريق عن القوافل، وقد علم مؤخّرًا المكتب الفرنسي بالسياسة التي ينتهجها الشّيخ سي الجيلاني.

فجنّدوا له مجموعةً من العسكر لتتبّعه، والقضاء عليه أينما حلّ، لكنّ الشيخ كان ذكيّاً في تنقّلاته ويملك عيونًا في المدينة، أمّا المعلومات التي كانت تلوكها الألسن الفرنسية، هي أنّ القبيلة كانت تموّل الخارجين عن القانون، وتوفّر لهم الأكل والجياد والمال، لكنّ المواقع الّتي كانت ترتحل إليها القبيلة بعيدة جدًّا، ولا يستطيع الوصول إليها الفرنسيون، كان الشّيخ لا يفارق الجبل وأحيانا يتوغّل في الصّحراء متّجها إلى الجنوب، والحقّ أنّه كان يعمل بمشورة الأشباح الذين استولوا تماما على الجبل، ولقد بعث الفرنسيّون بالرسائل للشيخ، وعرضوا عليه أن يعمل معهم مقابل الحماية، لكنّه أرسل لهم ورقة يقول فيها.

«منذ القديم وأجدادي أسياد ولا يحكمهم أحد، هكذا تربّينا وهكذا سنعيش ونموت ولقد رحلتُ منذ زمن بعيد وتركتُ لكم المدينة ولم أنازعكم في شيء، وقد سكنتُ قفرًا بعيدًا وأنا لا أريد منكم شيئا، فقط ابتعدوا عنّي، أمّا ما تسرّب لكم من أخبار وأنّي أساعد الأشباح الذين تُقاتلونهم، فذلك ليس صحيحًا أبدًا، أنا لا أتّصل بهم، فهم لا يعنوني وصحيح أنّهم من المدينة وأعرفهم مذ كانوا صغارًا، ومتيقّن أنّكم أنتم من جعلتموهم أشباحا، ووحوشا يرعبونكم ويقضّون عليكم مضاجعكم، ما دخلي أنا بهم، اذهبوا إليهم وقاتلوهم وابتعدوا عنّا فنحن نعيش بسلام».

ولقد آمن الشيخ منذ صغره حدّ اليقين بالكرامة القديمة، حينما كان طالبًا في الزّاوية، فلقد حفظ القرآن الكريم وتلقّى الأوراد، والأشعار المأثورة من المشايخ الذين كانوا هناك، وحدث له حينما كان في تلك الدّور القديمة الواقعة في قمّة الجبل وأن سمع صوتًا خافتًا نابعًا من القبر الموجود في داخل المسجد يبشّره بأن يكون خليفة على إرث أجداده، فآمن بما سمعه في الثلث الأخير من اللّيل.

وسار على نهج أجداده ولم يفارقه ذلك الصّوت العميق أبدا، وحفر في ذاكرته كما تحفر مياهٌ جارفة في أرض قاحلة، فقد قرأ عنهم الكثير في المخطوطات الموجودة في مكتبة الزاوية، وقد عمد العاملون هناك على إبعادها عن أعين النّاس كي لا تتطاول لها الأيدي وتتعرّض للتّلف.

كانت الزاوية ممثّلة في حلقة من الدور مبنيّة بزخرفةٍ رائعةٍ وآسرة من العهد التركي واقعة على حافّة الجبل، وتقابلها من النّاحية الأخرى مقبرة عظيمة، وبقايا دور من العصور الغابرة، وكانت الزاوية غارقة في سلسلة جبلية كقمر مطلّ من سماء ملبّدة بالغيوم.

كان يعتكف لدراسة القرآن ودراسة تلك المخطوطات مُحاولًا شرحها وتفسيرها وكان سريع الحفظ والاستنباط فنبغ في العلوم، وذاع صيته في كلّ البلاد حتّى صار يُستفتى في كلّ المسائل وأصبح شيخا للزاوية، فصدقت النّبوءة وذلك الصوت المتسلّل من القبر، ومنذ تولّيه الزاوية وكلّ القبائل تأتمر بإمرته وترجع لحكمته ورأيه.

وبعد سنتين من ذلك قدم الفرنسيون إلى الزاوية، وطلبوا من الشيخ أن يكون لهم سندا وعونا في السّيطرة على المنطقة، لكنّه رفض ذلك بشدّة وأشاح بوجهه ناحية مقام جدّه الأكبر في المسجد.

ولم تمرّ أيّامٌ فقط حتىّ عادوا إليه، وقد حاصروا كلّ المكان وخرّبوا المدرسة وحاولوا حرقها وسرقة المخطوطات الموجودة هناك لكنّ الشيخ وقف في وجههم قائلا:

«امنحوني يومين فقط، وأنا موافق على ما طلبتم مبدئيّا، فرحلوا وساد الصّمت بين الطّلبة هناك والعاملين، ورمقوه بنظراتٍ غريبةٍ مزريةٍ».

لكنّه ابتسم قائلا:

«فعلتُ ذلك كي لا يحرقوا إرث أجدادنا العظيم، وأنها لكذبة تشبه التي قالها نبيّ الله ابراهيم عليه السلام وليست واقعا، فمن أنا حتّى أُجري كلمة الباطل على ألسن الأهالي؟... ومن أنا حتّى أقرّر مشيئتهم وأسلّم عرش أجدادنا للأعداء وأُعينُهم على ذلك؟ ومنذ كنتُ صغيرًا ولم يُفارقني ذلك الصوت العميق النّابع من الزّمن الغابر.

فتبعتُه وحلمتُ به ليلا ونهارا، ولم أشكّ قط أنّه وساوس وهواجس، بل كان الصوت نقيّا طاهرًا لم يسمعه غيري، وهو ينادي كل وقت في الثلث الأخير من الليل متسرّبًا إلى بئر المدينة، ومتوغّلا في عروق الصحراء الشاسعة، فكيف تصدّقون أن يكون صوتي أعلى من ذلك الصوت؟

لقد قلتُ ذلك لهم ووعدتهم بالأماني حتّى نستطيع الفرار بإرث أجدادنا، والرحيل إلى الأبد عن هذا المكان وأنا متأكّد أنّهم لن يتركونا إذا بقينا هنا، فاستعدّوا للرحيل واجمعوا كلّ المخطوطات والكتب وكلّ متاعكم، فسنرحل فجر هذه الليلة، وإنّي أعرف مكانا قصيًّا لا تطؤه الجنّ، سنقصده ونحطّ رحالنا هناك إلى أجلٍ غير مُسمّى».

ودار الزمن مرّةً ثانية، فالتقى الماريشال نيميا بالشيخ وحاصر مدينته الصغيرة بمئات الجنود، والعتاد وقرّر أن يبيدها لأنّها تشكّل خطرًا حقيقيًّا في المنطقة، فلقد اجتمعوا ليلة البارحة في المكتب الفرنسيّ وكان النّقاش محتدمًا حول تأثير الشيخ سي الجيلاني في المنطقة.

وقال أحد الحضور متخوّفًا منه:

«الخطر بات وشيكًا ولا سيما أنّ سي الجيلاني اتّصل بالشرق والغرب وازداد نفوذه قوّةً، وإني أرى أن نسرع في إخماد هذه الفتنة قبل أن تُوقد نارها وتبتلعنا كلّنا».

وقاطعه آخر مبتسمًا بسخريةٍ:

«لمَ تضخّم الأمر؟ كيف لشيخٍ هرم أن يكون نارًا تبتلعُنا كلّنا، فلتُراجع كلامك أرجوك، أستطيعُ في ساعة واحدة فقط أن أحرقهم كلّهم، وسأعلّق ذلك الشّيخ الملعون على أسوار المدينة كي يكون عبرةً لأولئك الخارجين عن القانون».

وهكذا كان الكلّ يدلي دلوه ويبدي تخوّفه حيال ما يُقال في المدينة وأنّ سي الجيلاني يشكّل جيشا للهجوم على الثّكنة العسكرية.

وعزم نيميا ليلتها العثور عليهم ويتحقّق من خبر ذلك الشيخ، فقاد معه مئات الجنود وتوغّلوا في الجبال كي يتتبّع آثاره وخاصةً أنّه صعب المنال والمراس، وقد وجدهم صدفة خلف واد الجبل، فأرسل له رسولًا ليبلّغه أنّه يريد مائتي شاةً ضريبةً مقابل مكوثهم هنا، فردّ له الشّيخ سي الجيلاني وأرسل الرّزايا وأبلغه أنّها الضّريبة التي تدفعها سائر القبائل للعسكر ولن يزيد عنها قطميرا، وكانت الرّزايا مزجاة لا تصل للحد الذي بالغ فيه نيميا، فغضب وأرسل له ينذره ويشدّد في ذلك.

وأتى أحد الأتباع لاهثًا كأنّما يتخطّفه الطير وأبلغهم بما قاله رسول نيميا.

– يا شيخ لقد أرسلوا جنديّا إلينا قال:

«أنّ الجنرال سيعطينا مهلةً، فإمّا أن نقدّم مائتي شاةٍ أو يُبيد القرية كاملة»

– هم يفزعوننا فقط بتهديدهم.

– لكنّ سلاحهم موجّهٌ نحونا، ونحن لا نقوى على مواجهتهم، وحولنا الكثير من النسوة والأطفال.

– لقد قدّمنا لهم الرزايا التي يريدونها، ولكنّ سبب قدومهم ليس ذلك، هم يعرفون أنّ عددنا يزداد يوما بعد يوم وقوّتنا تتضاعف، وعلى الأرجح يودّون القضاء علينا نهائيًّا، ولئن أعطيتهم الألف شاة، لقالوا نريد المزيد، ولن يُقنع بطونهم إلا هلاكنا.

هكذا قال سي الجيلاني وقد احمرّ وجهه:

– لن نعطيهم شيئا وليفعلوا ما أرادوا.

صرخت المرأة ساجية في وجهه قائلة:

– أنت لا تملك أرواحنا، حتى تسلبها منّا في مقابل مائة شاة أو مائتين نقدمها لهم هم لا يمزحون في ذلك فلقد أحرقوا قبيلة سي موسى بعد أن نكّلوا بأهلها.

حينها نطق أحد الرجال بغضبٍ شديد:

– اسمح لنا يا شيخ وسترى كيف نقطّعهم بسيوفنا هذه حتى يكفُّون عن ملاحقتنا واهربوا أنتم للصحراء، كما فعلت باقي القبائل الأخرى.

– هذا ما يخرج منك يا رجل، تريد أن نقتل نساءنا وأطفالنا بالجوع والبرد، ونضع لهم رؤوسنا تحت رحمتهم.

وادلهمّت الأفكار به كموج متلاطم وأدرك أنّهم مصمّمون دون هوادة، فهمّ في قتالهم لكنّه لبرهةٍ رأى النساء والأطفال من حوله فعدل عن ذلك، ووقب خيمته وجلا خاشعًا وفتح مخطوطة جدّه القديمة.

وراح يحدّق فيها لوقت طويل والنّاس ناظرون لقراره مترقّبون، وأغمض عينيه فسمع ذلك الصوت وكأنّه الزمن الغابر ولّى والسرّ المكنون نطق، وأخبره أن يذهب إليهم حاملا صندوق جدّه القديم وفيه بعض من المال، وأن لا يخبرهم أنّه الشيخ سي الجيلاني حتىّ لا يقتلوه.

وهكذا فعل الشيخ وخرج كالمَلَك الأبيض واثقا في خطواته والنّاس حوله محملقون وكأنّهم خشب مسنّدة، وذُهلوا من ملامح الشيخ الغريبة، وأيقنوا أنّها بركة الجيتول عادت واستكانت في داخله، فلم يسألوه ولم ينغّصوا عليه، بل تابعوا طيفه مبتعدا وأورادهم تتصاعد للسّماء كغبار خلّفته العاديات قاصدةً حربًا عظيمةً، فأقبل على المعسكر الفرنسي وعيناه الثاقبتان تشقّ صفوف الجنود شقّا، ودخل خيمة قائدهم بعدما دعاه هناك، فقدّم له الصندوق وفتحه فتطاير منه ذلك النّور وانتشر في المكان كفراش مبثوث، فنطق نيميا مبتسما:

«لقد أغرقتموني بعطاياكم وإنّكم أناس كرماء، تحطّون الرّجال منازلهم، وإنّ هذا لمال كثير يكفيني طوال حياتي».

ثمّ عاد الشيخ وقد رحل كلّ العسكر، وتركوا مكانهم فارغًا خاليًا، وحين عودته هتف النّاس باسمه وازدادت ثقتهم فيه، وتخافتوا فيما بينهم أنّه رجل مبارك وشيخ لم يلد الزمان مثله.

ولم يعرف أحد ما كان داخل الصّندوق الذي كان يغطّيه الشيخ بردائه حين خروجه، فردّدوا هامسين أنّه سرّ الآباء والأجداد، ولا ينبغي الخوض فيه والسؤال عنه، ولم يُدركوا أنّ الذي كان في الصندوق يفوق ثمن مائتي شاة التي طلبها الفرنسيون، وعادت أشعّة الشمس نافذة كما كانت، وتعالى ضجيج الحياة واستعادت القبيلة عافيتها.

والتحق بها المئات من القبائل الأخرى حين ما سمعوا قصّة الصندوق العجيب لكنّ الشيخ كان متيقّنا أنّ الفرنسيين سيعودون، ولن يكون في وسعه أن يدفع لهم أكثر من ذلك، ورأى في منامه كلّ أهالي المدينة، وقد تحوّلوا أشباحا وحلّقوا في سماء عالية بيضاء.

فتيقّن أنّ الأمر قد حان وأنّ عليه تقسيم قبيلته الكبيرة لمجموعات صغيرة، ويُلحقها بالمقاومة كي يُدعّم الأشباح القابعين في الجبال، وأن يستجيب لنداء آبائه في الذّود عن المدينة والزاوية العريقة.

أمّا نيميا فقد خبّأ الأمر تمامًا عن المكتب الفرنسيّ حين عودته للمدينة، ورشى جنوده كي يكتموا الأمر، فأخبرهم حينما سألوه أنّه لم يجد الشيخ وأنّ الوصول إليه صعب جدّا، وقد أضمر في داخله أنّه ليس عليه تسليم ثروة جناها بنفسه، وأنّ عليه الرّحيل بعيدا عن

المدينة كي لا يُكتشف أمره، ولم تمرّ أيام فقط حتّى وشى به الجنود التي صحت ضمائرهم، فحُبس جرّاء الخيانة واكتُشف أمر المال فأُرسل للخزينة الفرنسيّة وفشت الفتنة والخيانة بين الفرنسيين حيال ما فعله نيميا، وحلّت عليهم دائرة السوء زمنا طويلا.

* * *

الحصَار

صباح تلك اللّيلة الخياليّة استيقظ جون متأخّرًا على وقع فوضى عارمة وصراخ الأهالي، فأسرع لرؤية ما يحدث خارج المنزل، وكان واقعًا في نهاية شارع دي جليبار، كان العسكر يفتّشون المارّة ويعتدون عليهم بالضرب، ويُخرّبون المحلاّت وفي النّاحية المُقابلة للشارع كان هُناك آخرون يتشابكون مع بعض الباعة بعدما استولوا على سلعهم غصبًا، أمّا أحدهم فكان يصرخ بغضبٍ شديد:

– من الآن لا خروج ولا دخول، ومن يتجرأ على عتبة بابه سيُقتل.

حينها اقتربَ جون من أحد العسكر غاضبًا:

– ماذا حدث حتى يُحظروا عن التّجوال؟

– لا تتدخّل أنتَ، كفاك ما حدث لك تلك الليلة.

– أريد أن أعرف ما الذي حدث؟

– هؤلاء البدو يخبّئون في منازلهم المخرّبين والخارجين عنّا، ويتستّرون عليهم. أتعرف ما الذي حدث البارحة؟...قام بعضهم بنصب كمينٍ لحافلةٍ كانت تنقل الأدوية وقبلها حطّموا أعمدة خيوط الهاتف وخرّبوا سكّة الحديد.

– ولكن ما ذنبُ الأهالي!

وعندما كان جون يُشاهد الشّاحنات التي تتوقّف هنا وهناك حاملة معها كُلَّ ما يُنهب ويُسلب من المنازل وطاولات الباعة، بما في ذلك الخرفان والطعام وأشياء أخرى، انتهى نظره خلف الشاحنة حيثُ كان الولد إدريس يتشابك مع أحدهم من أجل أغنامه.

– ابتعدوا عنّي، لن تأخذوا واحدةً منها.

وكان الجندي يضربه بشدّة، فجُّن جون وألقى نفسه بينهم حتى يستطيع إخراج إدريس من بين أيديهم، فأحاط به الجنود وخرجَ من بينهم مارشال ناميا وقال له:

– لا نُريد أن نعصيَ أوامر الجنرال ماري بعدم التعرّض لك، فأرجوك اصطحبْ هذا الولد وابتعدْ عن طريقنا.

كانوا يبحثون عن الرجل المُسمى سي الحواس الذي لطالما تكرّر على ألسنة الفرنسيين، يُقال إنّه مبعوث القائد زيان عاشور للجبهة في هذه المنطقة، ويُشاع أيضا أنّه يعيش مع الناس وسط المدينة وهذا ما زاد من جنونهم، كان يتوغّل بين الأهالي للتّجسس وتوفير المؤونة ونقلها خارج المدينة بعيدًا حيث يتمركز الثُوار هناك في الجبال.

ووقتَها ظهر الجنرال ماري يتبعه بعض الجنود، وراح يقرأ مرسومًا جديدًا على مسمع النّاس:

– ابتداءً من صباح اليوم، لا تجوّل... لا خروج ولا دخول، حصارٌ عسكريّ حتّى تُخرجوا سي الحواس من بيوتكم وتسلّموه لنا.

وآنذاك لبث الولد إدريس تلك الأيّام مع جون ولينا في منزلهما، كانوا يترقّبون الصّمت المهول الذي يكاد يقطع أنفاس شارع لي مارتير.

لم يكنْ هناك إلاَّ بعض الجنود يرسمون مسارات مستقيمة مُترقّبين أيَّ تطور حادث، وشُوهد أيضًا بعض المعمّرين الذين كانوا يتحرّكون بحريّة، علاوة على سي العربي الذي شُوهد متجولًا دون أي حظر.

وفي أطراف المدينة قُرب تلك المزارع تسلّل بعض الفلاحين إلى أراضيهم لقطف بعض الثّمار بعدما شُلّتْ حركة البيع ونفد كل الطعام، لكن سرعان ما كُشف أمرهم وهم عائدون إلى خيامهم، فغدتْ طريقهم تلك أجداثًا بعدما أُطلقت عليهم النّار بعشوائية، وتساقطوا كما تتساقط الأوراق الخريفية.

كان الحصار يُطوّق أنفاس المدينة، يعزلها عن الخارج ويجعلها تمرض لحظة بعد لحظة، وطال الانتظار فنفد صبر الأهالي وانتهتْ ذخيرتهم، وأصبحوا بلا قوت خاصّة تلك العائلات الفقيرة جدًّا التي لم تجد منفذًا أمام بكاء أطفالها وعجز كبارها وحينها كان الرعب يستولي على قلوب العسكر، وخاصّةً تلك الشّائعات التي انتشرتْ هنا وهناك.

كان يُقال أنّ زيّان عاشور جلبَ كثيرًا من الرّجال السود من أصل سينغالي وتأكّدَ ذلك الخبر مع مقتل خمسةِ جنود عند تعرّضهم لقطع طريق من قبل مُلثّمين وأسروا ثلاثة منهم واختفوا وسط تلك الجبال الخيالية، كانت الأحداثُ تندلع في كل ناحية وفي كلّ القُرى القريبة من المدينة لاسيما وهذا الحصار الذي مازال يخنق السّكان.

«هذا الرجل لا أثر له غير اسمه المبثوث في الأسماع، يضرب متى يشاء ومتى أراد ذلك، كان الكلُّ يخاف السير في تلك الطرق المتشعّبة المؤدية للجبل الذي يختبئ فيه، حتّى الطائرات لم تجد لهم مكانًا، كانوا يسكنون الكهوف والمغارات منذ زمن قديم فقد ألفوا طريقهم جيّدا، حتّى العتاد والأسلحة الثقيلة وقفتْ عاجزة أمام إرادة هؤلاء البدو، كيف لا ينتصرون وقد أحسستُ بذلك السّحر الأسطوري الذي انتشر من البئر في أوّل ولوج لي لهذه المدينة، حتى صخورهم الجامدة لم تنس شيئا من الماضي، لقد رأيتُ أشياء خيالية لم يُصدّقها عقلي حتى الآن، وأولئك الصبية المركونين تحت الخيام، لم يتوقّفوا لحظة من إرسال تعاويذهم الساحرة.

كيف أصدّق أنّهم بربر ومتخلّفون وجاهلون؟ كيف صدّقتُ تلك المذكّرات الملعونة المزيّفة؟

جدي كان يستهزئ بي، هو لم ينس أبدًا أنَّ أمّي تلك المرأة المسكينة مريم، لا شكّ أنّه هو الذي قتَلَها، كم أشتاق لحُضنك المختلف يا أمّي، هل أنت حقيقة في وطن فرنسيّ مزيّف ينهبُ الشعوب ويقتلُ البشر حتى يصنعَ لأبنائه تاريخا، لا أعرف غير اسمك مريم، ما أقبح هذا الوطن الذي قضى على إنسانيتي وعوّضني بدلا عنه ماضيا مشؤوما».

هكذا بدأ جون كتابة مذكّراته كي يُصحّح ما كتبَه جدّه قديما.

وفي ذلك الوقت كانت الغوغاء تنتشر في المدينة عندما خرج جون يتبع الولد إدريس لشارع لي مارتير، كان الكلُّ مُندهشًا ناحية الرجل الذي رفَعَ يديه وسط تجمّع النّاس صارخا:

– أنا سي الحوّاس الرجل الذي تبحثون عنه.

الغريب في الأمر أنّه كان الرجل نفسه الذي كان يجلس في المقهى طوال اليوم الكل كان يعرف أنّه لم يغب عن المدينة لحظة واحدة وأنّ اسمه بشير، فمن أين جاء بهذه الجُرأة؟

لم يكن الجند يعرفون ملامح سي الحواس، فقد صدّقوه واقتادوه وسط ذهول الحاضرين، كان الأهالي متأكدّين أنه لم يكن هو وأنه كاذب في ادّعائه هذا بعضهم كان يهمس أنّه ضحّى بنفسه من أجل فكّ الحصار، وإنقاذ بعض الذين كاد يقتلهم الجوع والمرض، آنذاك تذكّر جون قصصه الكثيرة حينما كان يُجالسه في كثير من الأوقات، حكا له يومها فقال:

– مرَّ رجل تركي على قبر جدي، ذات يوم وكانتْ إحدى رجليه مكسورة، فباتَ ليلتها مُتّكئا عليه، وعندما استيقظ في الصباح وجد أنّه قد شُفى من كل جروحه وجُبر كسره، كان قبره مباركًا، حتى أنّ ذلك الرجل عاد بعد سنوات له وبنى قبة دولمن[1] على قبره، ومن ذلك اليوم والنّاس يقصدونَه في طلب كرامته والتقرّب له بالهدايا.

كان كلُّ من في المقهى يبتسم بسخرية عن الأساطير التي يقصُّها، لكنّه انفعل حينها قائلا لهم «أتُراكم نسيتم ما حدث قبل سنوات»:

– عندما حاصر الجند الفرنسيون، الرجال الذين أرسلهم الأمير عبد القادر واشتبكوا معهم بالرشّاشات، وعلى الرغم من أنّ

1– الدولمن أو المناطير: ويسميها بعض الناس في الوقت الحاضر بالمناطير، وهي طاولات حجرية ضخمة مكونة من الصخور الصوانية الكبيرة والتي يصل أبعدها (3–2–15) وهي تشكل ما يشبه الغرف الصغيرة، لم يترك الذين أنشؤوها نقشا أو علامة واحدة عليها.

عددهم كان قليلا إلا أنّهم لم يقدروا على مُجاراتهم في المعركة حتّى لجأ الفرنسيّون إلى المدفعية، وأنتم تعرفون جيّدا ماذا حدث، تعطّلتْ المدفعيّة ولم تعمل، حتّى قيل أنّها كانتْ تُخرج الماء بدل النّار وأكبر دليل على ذلك أنّهم لا يستطيعون تهديمها حتى الآن.

وقتَها نطق أحد الحاضرين مُبتسما:

– هي أكاذيب فقط، دعك من التفاخر بكرامات جدّك التي تختلقُها من رأسك.

انفعل حينها على الجميع صارخا:

– أنتم كلكم قوّادون، كونوا رجالا كالبقيّة واصعدوا للجبل.

ووقتَها التفتَ إلى جون صامتا، وكأنّه ندم على ما قاله، ثمّ تفحّصه بنظراته الغريبة وغادر مُسرعًا.

كان اليوم الموالي من إلقاء القبض على بشير مفعمًا بالحركة والغموض معًا، كان الأهالي يتخافتون بينهم حاكين عن قصّة بشير.

وفي ذلك الوقت توجّه جون رفقة إدريس خارج المدينة ماشيين خلف الأغنام المتلهّفة للسير في الصحراء، وحينها كان يُعيد سرد الأحداث التي مضتْ وقد أصابتْه كثير من الأسئلة الفارغة، وأحاطتْ به الدوائر واتّسعتْ حوله، ونطق مستغربًا حكاية ذلك الرجل:

– كيف يكون بشير صاحب الحكايات والكرامات هو نفسه الحوّاس، كنتُ أُجالسه طوال الوقت في المقهى فلمْ أسمع منه شيئًا مُريبًا أبدًا.

حينها تلعثم لسان إدريس حينما أراد قول شيء وتردّد في ذلك، وكأنه كان يُخفي شيئا ما، لكنّ جون أحاطه بعطفه، وراح يُواسيه بعد أن لاحظ جزعه وخوفه ووعده بمستقبل لا تشوبه الشوائب ولا يُكدّره شيء، فسكنتْ روح إدريس البريئة وراح يبوح له بالأسرار الدّفينة، فقال له هامسا:

– سأخبرك بسرّ، أني أحبّك ولا أستطيع أن أخفي عنك شيئا.

– نعم.

– غادر سي الحواس صباح اليوم خارج المدينة، فلقد كان مُختبئا في إحدى المنازل.

– والذي اقتاده الجند البارحة؟ ألم يكن هو؟

– بشير لم يكن هو سي الحواس، لقد قام بالتَّغطية عليه فقط.

– إذن الكلُّ هنا يعمل جنبا إلى جنب، كنتُ أشعر أنّ الأهالي هنا يمشون في ظلّ رجل حكيم وقد صدقتْ ظُنوني، أتعرف ينتابُني شعور بأنّي أستطيع أن أكون منهم وأن أُساعدهم في ما يفعلون.

– بماذا تشاركنا، قلتُ لك أنّ هذا سر، ولا دخل لي بما يحدث، فقط استرقتُ السّمع من بعضهم فقط.

وليلَتَها اتّجه جون إلى المحجر مُبتعدًا عن ضجيج المدينة، كان ككلّ مرّة مُشتاقًا لصمت المكان وصُوره الخياليّة، لا سيما وقد غادره النّاموس ولم يعد يُنغّص عليه، فمنذ أن بدأ يزور المكان استرجعَ هدوءه القديم، ورحلتْ عنه الأصوات المُتقطّعة، ولم يعدْ يشعر

بذلك الغُبار الدّفين، كان مُبتهجًا بمُجالسة تلك الصخرة العجيبة التي تُكلّمه كلما خلا إليها، تذكّر حينها الكرامات التي حكى عنها بشير وسحب مذكّراته الجديدة من معطفه وبدأ يكتب:

«ربما هذه الأرض الوحيدة التي يتكلّم فيها الجميع دون استثناء، أشعر بضرورة أن أُصحّح كتاب جدّي ذي الغلاف الخشن، وعليَّ أن لا أكذب مُجددًا، فلا أخاف لومة لائم وأن أتوقّف عن مواصلة ما يكتبه الفرنسيون، كنتُ أقول هذه الكلمة لأوّل مرة بارتباك «الفرنسيين»، أريد أن أكتب شيئا مُخالفا ومُميّزا، أوراق مثلا أو رسالةً طويلةً سأرسلُها إلى صديقي أوكتافيو وأقاربي هناك، أو سأنشرها في الجرائد هناك، فهل تُراهم سيُصدّقونني!؟

أريد أن ألتقي ذلك الرجل زياد، حينها سأترجّاه أن يرسم لوحات كثيرة عن ما يعيشه النّاس هنا، أنا الوحيد الذي يحيا بين وطنين، ينام على ذكريات مُزيّفة ويصحو على صرخات وطن آخر، سأقتسم معهما أشياء كثيرة، سأمنح أمي مريم والولد إدريس الصغير بعضا من إنسانيتي، في المقابل سأمنحُ فرنسا وفائي وحبّي الأبدي، هل بإمكانهما أن يُلغيا إنسانيتي، أتذكّر أننا أقسمنا في صغرنا حينما قلنا لفرنسا:

«نُقسم أن نحبك للأبد وأن نكون أوفياء لك حتى يعترضنا الموت».

هل يحقُّ لنا أن نقتلَ كُلَّ البشر حتى يكون قسمنا صادقا؟ هل سنُواصل الكذب طويلا على أنفسنا حتى لا نكون خونة؟ لم لا نعترف أنّنا أخطأنا وأنّنا مستعدون أن نصرخ بأعلى أصواتنا؟ سنقول أنّنا عشنا مسرحية مُزيّفة قُرابة قرن كامل».

أغلق جون مذكّراته وأغمض عينيه متّكئًا على الصخرة، واتّسع له الأفق واختمرتْ روحه بتلك الصخرة مُجدّدا، فرأى حينها طائرة استطلاعية تحوم في جبل بعيد، كانتْ تُطيل البحث عن شيء ما، وبعدَها بلحظات امتلأتْ السماء بكثير من المظلّيين الفرنسيين، وتسلّلتْ إلى تلك الصُّورة نداءات عالية تقول:

«لقد استشهد زيان عاشور[1]، هيا تراجعوا للخلف».

استيقظ جون فزعا وعاد إلى المدينة فارّا مما رآه، سرعان ما تذكر أنّها صور خيالية وليستْ حقيقة، وتناسى الأمر واستلقى على سريره يقرأ كتابا، فاستقبلتْه حينها لينا فرحة مُبتهجة بقطعة أثرية، قالتْ أنّها عثرتْ عليها في النّاحية الشرقية من المدينة وأنّ المكتب منحوها إيّاها كهدّية، وراحتْ تُردّد:

– أنا محظوظة اليوم، انظر هي تحتوي على رسومات صغيرة، هي مميّزة عن كل التُّحف.

وعندئذ أغمض جون عينيه الغائرتين وقال لها مُتذمّرا:

– هي ليستْ لك، يجب أن تُعيديها إلى مكانها.

* * *

1– زيان عاشور: رمز من رموز المقاومة في المنطقة والجزائر، ولد زيان عاشور بالبيض بلدية البسباس دائرة أولاد جلال ولاية بسكرة في 1919، التحق بمعاقل الثورة في الجبال وقد بلغ عدد المجاهدين المجندين تحت إمرته في هذه الفترة القصيرة، أي سنة 1956 ألف مجاهد ونيّف.

انزوى سي العربي كعادته عند طاولة جون، وراح يثرثر كعادته:

– أرأيت ماذا يحدث لمن يتمرّد على القانون؟ حصار واعتقالات ودمار، لما لا نعيشُ بسلام ويتوقّف هؤلاء الثّوار عن المغامرة بأرواحنا.

– ابتعد عنّي، لا أريد أن أتكلم معك، ثرثرتك هذه لا تُريحني.

– قلتُ لك أنّ لعنة الجيتول ستستوطنك، وستقضي عليك ببطء شديد.

– كفَّ عن هذا الهراء وقل لي، أريد أن أبني منزلا على أطراف المدينة، هل تعرف بنَّاءً هنا؟

– أتريد حقّا أن تسكُن خلف السور، أعرف أحدًا يستطيع مُساعدتك في ذلك.

– مهلا عن أي سور تتكلّم؟

– السور الذي هُدم منذ أعوام، نسيتُ أنّك جديد على أن تعرف هذا.

وآنذاك نبض قلب جون بشدة وارتعدتْ فريصتُه، فقد تذكّر صور تلك الليلة حينما كان في المحجر، ولم ينس أبدا صورة الولدين وهما جانب السور.

– أين شردتَ أيُّها الجيتولي؟

– هل كان حقا كان يُحيط بالمدينة سور، هل كان ذلك حقيقيا؟

– بماذا تهذي، هل عاد لك جُنونك الأوّل، نعم كان يُحيط بالمدينة سور، ماذا بك؟

– أخبرني أرجوك، هل حدثتْ مواجهة هناك أو ما شابه ذلك، هل قُتل أحد هناك؟

– لا أتذكّر جيدا، فقط القصة التي أثارتْ حفيظة النّاس، قصة الجندي الطويل راموس، لقد قتل ولدا صغيرا كان يلعب جانب السّور رفقة صديقه.

أحس جون بالدّوار ولاحقه التيه والضّياع وأصاب رأسه حرارة مُرتفعة، واستبدّتْ به تلك الهواجس، بعدما تشابه الخيال بالواقع وتقاسَمَا ملامح المكان والزمان، وكلَّم نفسه عن هذه الحقيقة التي استوحاها من الصخرة تلك الليلة، فكذّبَ أن يكون ذلك واقعًا، وقال مُتجاهلا يسأل عن المزيد:

– ما دخلي أنا والكرامات التي لا أعرفها، تبّا لك أيّها الأخرق لماذا تختلق القصص من رأسك؟

وحينها استدعى سي العربي رجلًا كان جالسا قربه، وسأله مُجدّدا عن ما حدث في السور، فأخبره نفس القصة عن الولد وقال أن اسمه الحواس، فصدّق جون ما قاله سي العربي وتيقّن من ذلك.

عرفَ أنّ الصخرة الأسيرة التي قتلتْ جدَّه ليستْ كتلك الصخور العادية، كانتْ تُخبره عن ليال كثيرة مضتْ، وأحداثٍ لم يشهدْها، لكنّه تفطَّن على ضرورة كتمان ذلك.

فكَّر أن يتّهمه النّاس بالجنون وأن يُسفّهوه، تذكر الكرامات التي حكى عنها بشير وحالما رأى كُرسيّه الفارغ في الزاوية هُناك عبسَ وتأسّف لذلك، كان الوحيد الذي يتقنُ حكاية هذه الأساطيّر جيدا، وعندئذ أغمضَ عينيه وحاول استرجاعَ صورة المظليّين، وهم ينزلونَ من السّماء، وصدى ذلك الصوت العميق:

– لقد استُشهد زيان عاشور.

وقبل أن يُغادر سي العربي المكان، أمسك جون بيده قائلا:

– متى ماتَ ذلك الرجل زيّان عاشور؟

– اخفضْ صوتك، أتريدُ أن تُقتلَ على أيدي الفلاّحين هنا، زيان عاشور مازال على قيد الحياة، وهو الآن قائد الثورة ضد الفرنسيّين.

– أتقصدُ أنَّ ذلك الكابوس لم يحدث بعد، هذا لا يُصدّق، كانتْ الصخرة تريد إخباري بشيء ما سيحدث.

وحينها توجّه جون مُسرعا لخارج المدينة حيثُ المرعى الذي يقصده الولد إدريس مع أغنامه، وتوقّف عنده لاهثا:

– قل لي أين هم؟ لا يُوجد الكثير من الوقت.

– من تقصد، وعن أيّ وقت تتكلّم؟

– لقد رأيتُ أنَّ القائد زيان عاشور سيُقتل، وأنَّ الفرنسيّين ينصبون له فخّاً.

– أنا لا أعرف شيئا، أنتَ تتوهّم يا صديقي فقط، دعْك من هذا الكلام.

– أنتَ الذي أخبرتني عن سي الحواس، أرجوك دُلّني على مكانهم فهم مُعرّضون للخطر.

تجاهل إدريس ثرثرته الكثيرة، ثم رحل مع أغنامه بعيدا وتركه مغتاظا، بين وهمه والحقيقة التي اكتشفَها، ثمّ تناسى الأمر تدريجيا عند رجوعه إلى المدينة.

لم يعرف طريقا للوصول إليهم، كان يشعر بهم في كل مكان، وهو يخطو خطواته عائدا وسط صمتٍ رهيبٍ، وبينما هو يقترب من منزله وسط ظُلمة حالكة سمع حركة مريبة، لكنّه لم يأبه لها، وما إن تقدَّم خُطواتٍ قليلة حتى تلقّى ضربة من الخلف، ووقتَها أفاق على مجموعة من المُلثّمين بعباءات بُنيّة وعمائم سوداء وبيضاء، كان الرجل الأكبر سنًّا الجالس على الكرسي يتأمّل عيني جون الثاقبتيْن فيما كان الآخرون يتخافتون بينهم، ولم يَدُم الأمر طويلا حتّى نطَق الرجل المُسنّ بصوت خشنٍ:

– ماذا تريد أن تقول لنا، وعن أي خطر تتكلم؟

حينها تكلّم جون بصوت مُرتجف وخائف، بعدما عرف أنّهم الثوار الذين يبحث عنهم، وقد حدّث نفسه قبل ذلك في أن لا يسردَ كوابيسه اللّعينة وكرامات الصخرة الأسيرة، لأنّه لن يصدّقه أحد، وفكّر في الكذب بدل الخيال كحُجّة ودليل.

– الفرنسيّون أرسلوا طائرة استطلاعية وكشفوا مكان تواجدكم، هم ينوون إنزال المظليّين وإحضار دبابات وعدد كبير من العساكر.

حينها اهتزَّ الشيخ واقفا وهو يقول:

– من أخبرك بذلك؟

– أنا فرنسي يا سيدي، ولقد سمعتُ ذلك في المخفر هناك، عندما زرتُ صديق أبي كان يتكلم في الهاتف عن إمكانية تزويده بطائرات للقضاء تمامًا على الثّوار واعتقال القائد زيان عاشور.

– ولكن لماذا تُريد مساعدتنا، ماذا استفدتَ وقدْ بُحتَ بهذه المعلومات؟

– أعرف أنَّك لا تُصدقني، إنْ قلتُ لك أنّي أكره تواجدهم هنا، أنا لا أريد أن أنتقم لأنّهم قتلوا أمّي مريم، لا أعرف ماذا دفعني لذلك، لكني مرتاح الآن.

أسرعوا بالخروج حينها، ورافق أحدُهم جون فوق عربة بعدما غطّى رأسه، وترَكه في أطراف المدينة مُلقىً يسمع صوت الأغنام وحركتها القريبة منه، حينها تنفّس الصعداء وأدرك أنّه بلّغ ما رآه وما سمعه، وابتسم كولد صغير مبتهجا بالبطولة التي قام بها، وبينما هو كذالك ناده صوت الرّاعي قائلا:

– ماذا حدث لك يا رجل؟

لكن جون كان مبتسما حينها غارقا في ذكريات طفولته القديمة التي كان يفتقدها كثيرا، يفتقد أباه وعمّته كلارا وأصدقائه في مدرسة فرنسا، عادتْ له حياته كما ألفها أوّل مرّة وتحرّر من لعنة ذلك الغبار المستطير وتلك الأصوات المُتقطّعة وعانق الأرض مُتمرّغا فيها وقد طفرتْ منه دموع الحُريّة.

* * *

منْ مُذكّرَات جُون

«9 نوفمبر 1956 ... فراغ وصمت رهيب يحتّل شوارع المدينة، الحزن يخيّم على أوجه الشيوخ والعجائز وحتى الأطفال، كلّهم متأثّرون بما حصل، كل شيء مُغلق ومتوقّف، أتعجَّبُ من حدادهم عليه وهم الذين قالوا مرارا أنهّم لا يعرفونه ولا يكترثون بما يفعل، ها هي أوجههم تُظهر غير ذلك، كيف لا وهو الذي دافع عنهم سنوات كثيرة، مُتحدّيا قسوة الطبيعة والعتاد الضّخم للفرنسيّن فقط من أجل أن يعيشوا غير هذه الحياة، ها هم متوجّسون وخائفون من سؤال متكرّر.

– إلى متى ونحن هكذا؟

كان الجند يعتدون على بعض النّساء المُرتديات ملابس سوداء حدادا عليه، هو كما يقول هؤلاء الأهالي:

«رجل الصحراء الذي دوّخ الفرنسيين لسنوات طويلة، اسمه مازال عالقا في مُخيلتي منذ أن سمعتُ اسمه أوّل مرة قرب الصخرة الأسيرة «زيان عاشور».

ومن ذلك الوقت وأنا أنام وأستيقظ على صُورته العالقة، كنتُ قد أخبرتهم منذ ثلاثة أيّام، أقصد أولئك الأشباح الذين اختطفوني بما حدث فعلا، لكنّه كان قدَرا وأنّى يحقُّ لي أن أفعل شيئا ما حيال ذلك، كنتُ أشعر أنّي خذلتُ أمي مريم مُجددا وأنا الذي ما يزال يكتبُ وراء الجدران بدل التفكير في شيء أكثر نفعًا، لا بد أن أتوقّف عن زيارة تلك الصخرة العجيبة بعدما شُفيتُ من تلك اللّعنة التي انتشرتْ في داخلي مذ قراءتي ذلك الكتاب ذي الغلاف الخشن، أتذكّر أنّي رأيتُه ذات مرّة وهو يخرج من ذلك البئر الأسطوري، لابد أنّه كذلك حقًّا هو أسطوري ومميّز حتى يفعلَ كل هذا بالفرنسيين.

انتصاراته نابعة من كلمات أولئك الأولاد في الخيمة وكرامات قديمة مازالتْ تختبئ في الصخور، كانتْ حقّاً كرامات كما سرد ذلك الرجل بشير، بشير هو الآن داخل تلك السُجون الضيّقة كما فعلوا بي ذات مرة، معتقل ومدفون ينتظرُ اللحاق بصديقه زيان عاشور، كنتُ دائما أتساءل في نفسي عن اختيار الصخرة الأسيرة لي وإخباري بقصص المدينة، وأنا الذي يغرق في هواجسه القديمة، وأنا الذي لا يكترث بهذا الوطن الذي لا أعرفه جيّدا، لم أنا بالتحديد؟

ازدواجيتي هي التي أفكّر بها، أم أنّي رجل أسطوري تبنّى أكثر القضايا تعقيدا في العالم، حتمًا ستصفونني بالمريض بعد أن تقرؤوا مذكّراتي هذه بعد سنوات.

اليوم أعلنَ الفرنسيُّون أنهم قَتَلوا زيان عاشور وسط فرحة غامرة منهم، كتبوا بجانب الإعلان:

«المتمردون مصيرهم العذاب الدائم، والأوفياء لن يموتوا أبدا»

كذلك علَّقوا قائمة طويلة تحتوي على أسماء المتمردين نعامة محمد الصغير، سعداني محمد، بوزيدي عبد الرحمان، علي البليدي، يحياوي أحمد، ونحن قاعدون هنا نحتسي القهوة ونرشف الخيالات الكثيرة.

كنّا أوفياء جدا، أنا جون ميشال ولافار ونايمي، إذن هنيئا لنا هذا الوفاء ولكم كذلك أيّها الفرنسيون بعد سنين قادمة، هنيئا أنّكم ستعيشون على أنقاض الموتى واليتامى والمُعذَّبين.

منذ قرن تقريبا أطلّت الأشباح على جدي في معمله الصخري، ومازالتْ حتى اليوم، فكيف تنتهي بحداد طويل على هذا الرجل؟

الكل كان مُنتظرا ماذا سيحدثُ بعد ذلك ومن سيصعد من البئر مُجدّدا ليكون أسطوريا، أم أنّه كما يقول الفرنسيُّون حقا «المتمرّدون مصيرهم العذاب الدائم».

قبل يومين بالتحديد 7 نوفمبر، جرت المعركة في واد خلفون كما أخبرني الفلاّحون أو الثّوار الناجون على الأصح:

«كنّا نشاهد الطائرات الكثيرة التي تحوم بالمنطقة، والشاحنات المملوءة بالجنود كانوا متّجهين لذلك الوادي أين اكتشفوا تحرّكات الثوار هُناك، بعد حملة تمشيط مكثّفة على كل الجبال، حينها تمكَّنوا من معرفة مكان تواجدهم، كان المئات من المظليّين ينزلون هناك علاوة على الدبابات وكثير من الإمدادات وحصار آخر في المدينة خوفا من فرارهم للاختباء فيها، ورغم ذلك استمرّتْ المعركة طويلا، في المُقابل كان زيّان مزودا بالرشّاش وأصدقاؤه بأسلحتهم البسيطة أمام العتاد الضخم مرَّ الوقتُ وسقط كثير من الجند الفرنسيين. كان زيان

يقود جيشه بسرعة وسط الجبال والصّخور التي خَبرَها جيدا لكنَّ القصف المُكثّف بالطائرات أردتْه قتيلا رفقة أصدقائه، ثم أردفَ ذلك الفلاّح قائلا:

– هم لا يعلمون أن الآلاف خلف الجبال تألّموا لفقدانه، ولن يرتاحوا حتى ينتقموا له.

كان الولد إدريس يبكي بشدة حينما أتوْا للتمثيل بجثته في موكب عظيم من العسكر بعدما عرضوها على مختلف القرى، لم يحترم الفرنسيّون هذا البطل، وسخروا من جُثّته الأسطورية، حينها انفعل الناس وتشابكوا مع الفرنسيّين، لم أصدق نفسي يومها عندما كنتُ أصرخ في وجوههم بشدة:

– ارحلوا من أرضنا أيُّها القتلة.

كنت أدفعُ الجنود وسط ذلك الحشد بقُوّة لم أعهدها في نفسي، سرعان ما تفرقّنَا على طلقات الرصاص واعتقال الكثير منا، أحسستُ بالحرية التي انتشرتْ من أجسادهم الخائفة ورائحتُه الأسطورية التي استوطنتْ كل ركن في المدينة.

الحزنُ على فقدانه بدا جليّا في أعين الكل، تنبأّتُ دون أن أسمع تلك الصخرة أنّهم مستعدّون للتضحية، وآنذاك قابلني الفرنسيّون بغضب شديد، لكنّي واجهتُ الضابط الفرنسي العجوز بشدّة بعدما اعتقلني واستجوبني، سألني عن سبب المشي معهم في المُظاهرات وأعمال الشّغب كما ادّعى، قلتُ له حينها:

– أنا لستُ فرنسيا ولا أنتمي إليكم.

– أبوك وجدُّك لم يكونا ليفخرا بك وأنتَ في هذا الحال.

أجبتُه بسخريّة غريبة حينها:

– لم نسيتَ أمّي مريم، هي أيضا لن تفخر بي وأنا في هذا الحال.

ثم أهنته بكلمة فهمها جيدا:

– هنيئا لك، فأنتَ فخر لوطنك.

طردني حينها وأقسم أنّه سيقتُلني حينما يُصادفني المرة القادمة في طريقه، عدتُ لمنزلي مُتعبا، وأنا أحملُ بين أضلعي إنسانًا جديدًا استوطنني في لحظة واحدة شعرتُ بالارتياح والأسى من فقدان ذلك الرجل الذي لم أعرفه يومًا، عرفتُه فقط من دموع الولد إدريس وغضب هؤلاء الناس، وتيقنتُ هذه الأمسية أنّي لن أستمر هكذا ولن أصمتَ مُجددا، وأيقنتُ أنَّ هؤلاء ليسوا فرنسيّين بل قتلة، وهم حتمًا يُفكّرون في التّخلّص منّي، فقط لأنّني لا أحبُّ الدّم والقتلَ مثلهم.

وبعد أيّامٍ قليلةٍ فقط، تجوّلتُ المدينة كعادتي فلاحظتُ غياب وجوه معتادةً، ورأيتُ ذلك المقهى الذي أصبح خاليًا تماما، فقط كان سي العربي جالسا وحده بعدما اختفى الكُل، ربّما قد صعدوا للجبل هناك حيث كان زيان عاشور، وربّما غادروا المدينة التي أصبحتْ تعجُّ بالمشاكل، تذكّرتُ رحيل لافار وفراره من اللّعنة التي تتسرّب من البئر، ولكن كيف لها أن تُهاجم أهلها وتطردهم منها؟ كيف لرحيل ذلك الرجل أن يترك هذا الأثر البليغ في شوارع المدينة؟ كان الكلُّ صامتين، ويتصرّفون بغرابة بعدما حدث إلا سي العربي الذي مازال يُقهقه في المقهى مُظهرًا أسنانه بشجاعة:

– قلت لك أن المدينة ملعونةٌ ولم تُصدّقني، ها قد انفضَّ المقهى ولم يبق إلا أنا وأنت.

– لما لم تُصبك هذه اللعنة أنتَ؟ أم أنَّك تُثرثر فقط.

– أصحاب البذلة الزرقاء غسلوا أدمغتهم، وعطَّلوا عقولهم بتلك الشعارات المزيّفة مات الرجل المرابو[1] ومازالوا يلهثون خلف الحريّة.

– إذن تعرف أين غادروا، أنتَ رجلٌ غريبٌ حقًّا، يُساورني شكٌّ أنك فرنسي حقًّا.

ثمَّ أشاح بوجهه إلى الخارج مشيرا بيده:

– أنظر هناك، ها هو بشير صاحب الكرامات يعود مُجدّدا، لقد أطلقوا سراحه.

اختلط عليَّ كل شيء في هذه المدينة، كلّهم يدَّعون أشياء ويُضمرون غيرها.

حينها تقدّم بشير إلى طاولتنا مبتسما:

– ألم أقل أنَّ جدّي وكل آبائي من ذوي الكرامات، أصلا هم أخطأوا حينما اعتقلوني.

سأله حينها سي العربي مُستغربا عن كيفية خروجه:

– ألستَ هو سي الحواس، لم أطلقوا سراحك؟ ثم حتىّ ولم تكن الرجل الذي يبحثون لقد خدعتهم... فلماذا أعتقلوك؟ ماذا قلتَ لهم حتى أخرجوك؟

1 – المرابو: لقب أطلق على زيان عاشور.

– استجوبني المارشال، وسألني عن المنظمة التي تعمل في الخفاء وعن سي الحواس، لقد كانوا يعرفون أنّي لستُ هو، ثمَّ توعّدني بعذاب واصب لا ينقطع وأنّه سيقتلع عيني إذا لم أخبره بالمعلومات التي يُريدها، أجبتُه بهدوء حينها أنّي لا أعرف، فودّ أن يقتُلني حينها وأشهر مسدسه في وجهي، لكنّه فوجئ بأنَّ المسدس المحشو لم يعملْ، فتوجّس منّي وأعادني لزنزانتي، وبعد أيّام قَدمَ إليَّ وأخبرني أنَّ ابنتَه الصغيرة مريضة جدًّا، وترجّاني أن أُصلّي من أجلها، وبعد قُدومه لي بيوم عاود المجيء إليَّ مسرورًا مُبتهجًا، وأخبرني أنّ ابنته شُفيتْ وغادرتْها اللعنة التي أصابتْها، وقال أنَّ ذلك بفضل صلواتك ودعائك، أخرجني حينها وطلب منّي أن أسامحه، لم أفهم شيئًا مما حدثَ، وأنا الآن أجلسُ معكم وكأنّ شيئا لم يكن.

حينها بدأ سي العربي الضّحك بجنون حالما انتهى من قصّته، ولم يتمالك نفسه فرمقه بشير بنظرة غريبة، خاف حينها سي العربي وفرَّ ببطء بعدما ارتعبَ من كراماته التي حكاها، ودون أن يتكلّم غادر المقهى، ثمّ سمعتُ تمتمة بشير اتّجاهي:

– هذا رجل خائن سكن منذ مدة هنا، ولا نعرف أصله ولا فصله، لا يعرفُ إلا السخريّة بالآخرين.

وبعد أن استفردتُ به حكيتُ له كل قصّتي وما حدث لي عند الصخرة، كان ينصتُ ويُصدّق كلَّ ما أقول، أخبرته عن أمّي مريم وعن رغبتي الشديدة في اللّحاق بأولئك الثوار الذين صعدوا الجبل، كان يُبادلني الحديث متأثّرا، ومُتعجّبًا لموقفي المُعادي للفرنسيين، بعدَها حذّرني قائلا:

– إيّاك أن تُحاول ذلك، فهم سيقتلونك بمجرّد مُحاولتك الاقتراب من الجبل، أنت تعرف أنّهم غاضبون لموت الشيخ زيان عاشور.

– ماذا أفعل الآن، وأنا أشعرُ أنَّ السُّلطات العسكرية تُريد شرًّا بي، بعدما مشيتُ في المظاهرات.

لم يقل شيئًا حينها، اختفى وقد أخبرتُه بكلّ شيء، كنتُ غبيّا فلم أكن أعرفه جيدًا وحدّثتُ نفسي هامسًا:

«ربّما أطلقوا سراحه لأنّه كان متواطئًا معهم وليس كما ادعى»، وحتى الولد إدريس لم أره منذ فترة، هو الوحيد الذي أوصلني إلى أولئك الأشباح تلك الليلة.

ويومَها ابتعدتُ عن المدينة مختبئا وراء الصخور، علَّها تُعاودني أوهامي القديمة، مكثتُ طويلًا هناك لكن دون جدوى، كانت الصخرةُ ساكنة دون حركة كبقية الصخور، هل كانت حقيقة فعلا أم أنا الذي اختلق تلك الصور من رأسي؟

ولكن كيف لي أن أعرف كل ما رأيت قبل ذلك؟

ربما مقتل الشيخ زيان هو السبب، فلقد حذّرتني قبلها ولم أفعل شيئا مُهمًّا، كل شيء حدث كما رأيتُ فعلا...، أثقلتُ الشّرب هناك ورحتُ أُخلط آلاف الصّور والحكايات صارخا في المحجر، حتّى انهال عليَّ الجنود الفرنسيّن بالضرب فأُغمَي عليَّ ولم أفتح عينيَّ إلا وأنا في ذلك السّجن الملعون الذي زرتُه ذات ليلة خطأ، لكنّي صرتُ هذه المرّة خائنا ومتمردا.

وبعد ساعتين طويلتين وأنا مُلقى على الأرض أشكو آلاما في بطني وعنقي.

لاقاني رجل ذو جسم ضخم يتبعه بعض الحمقى، دوَّخني بأسئلته الكثيرة، بعضها كان عن المنظمة التي تُشجّع الشباب على الثورة وبعضها عن سبب خيانتي لوطني، قلتُ حينها ساخرًا منه:

– أنا أحبُّ فتاةً بربريةً، وقد اشترطتْ عليَّ أن أخون وطني حتى تكون معي.

حينها ازداد غضبا وسكب على جسمي ماء ساخنا، وأشربني قاذورات ودماء، لم أعرف كيف كنت شجاعا حينها، تحمّلتُ كل شيء ورحتُ أطلق ضحكات هستيرية كالشياطين، فتوجَّس منّي أحد الجنود وخاف بعد أن فرَّ من نظراتي التي لم أعتدْها في نفسي، شعرتُ أن روح الصخرة اختمرتْ بروحي مُجدّدًا، كنتُ صلبًا جدًّا على غير عادتي، لم يستطيعوا السيطرة عليَّ، رحتُ أهذي بأسرار كثيرة كان يخبّئها الفرنسيون عن بعضهم ومجازر ارتكبوها في حق أولئك المساكين، حتى السوط كان يزيد من صمودي وسخريتي منهم، كنتُ أُنادي:

«أنا الآن الإنسان الذي يملك روح صخرة»

مرضتُ بشدة حينها وأنا أنازع حمى الخيال التي تستوطنني، غادرني الجميع وتركوني تائها، تذكّرتُ صمت الصخرة ليلة البارحة، وقدْ تهيّأ لي أنّ روحها قد غادرتْها وتلبّستْ في روحي وسط هذا الضجيج.

بقيتُ على هذا الحال عدّة ليال وأنا مرمي في الزنزانة، كان ذلك السّجان القصير يتربّص بي من خلف الجدار، وكأنّه خائف من أن تقع عيناي في وجهه، خاصة بعد أنْ شهد آخر استجواب مع المارشال، انتهى به هذا الأخير بأن فرّ من جمودي وقسوتي معه، كنتُ أقول له ساخرًا:

– كيف تُريدني أن أقتلع عينيك.

توجس من كلامي الشيطاني الذي أُخرجه ولم يعدْ يزوروني، لم يبق إلا هذا القصير يسمع أوبرا التعذيب في ذلك الرواق الطويل، كان يقف من الصباح حتى يختفي النّور مُغادرا النافذة الصغيرة، ثم يعود اليوم الموالي وما يزال هناك، كنتُ أقارن حالتي به، فرأيتُهما متشابهيْن، كلّ ما يفصلنا جدار، كنتُ أشعر بالحرّية وأنا داخل هذه الظُّلمة بينما ألحظ عبوس وجهه وحزنه وعينيه المقيّدتين على عتبة القضبان، أحسستُ بتلك الحرية التي يفتقدها الثوار خلف الجبال البعيدة.

كذلك سكان المدينة المُضطهدون، وكيف أنّهم فقدوا الرغبة في العيش، واستوطنوا تلك الأشباح الليلية حتى تُعانق أجسامهم اليائسة أشعّة الشمس مُجددًّا.

أخيرًا تكلّم معي السّجان القصير وقال:

– لقد سمعتُ أنّهم يُريدون نقلك إلى الشمال هناك حيثُ الكثير من الخائنين هناك والمتمرّدين، ارجع لصوابك وإلا سيقتلُونك، لا أرى فائدة من هذا العناد، عُد لمنزلك الفرنسي هناك ودعك منهم، أنتَ لن تستطيع تصحيح قرن كامل من أخطائنا.

– أعدْ ماذا قلتَ، إذن أنتَ لا تُوافقهم على ذلك، أتعترف بأنّك قاتل معهم.

– أنا لم أقتل أحدا أيها الهمجي، أنا هنا أكمل فترة عملي وسأرحل قريبا.

– وماذا عن هؤلاء، الذين يقتلون كلّ يوم بالخارج، ألا تعرف أنّك تُساعدهم ؟.

– تبًّا لك لا تتكلّم معي، أنا لستُ مضطرًّا أن أسمع مُحاضرتك هذه، أخبرتُك فقط لتُفكّر مُجدّدا في ما ستفعله بحياتك.

صباح الغد وقفتُ مع كثير من المعتقلين في الساحة، كنا ننتظر الشاحنة للذهاب للشمال كما أخبرني ذلك القصير تماما، وما إن أتتْ حتى رمونا داخلها وأغلقوا الأبواب الحديدية، لم أكن أنتظر هذه النهاية المُخزية، كان حالي كحال السلع التي يكدّسونها في الصناديق.

ماذا بعد الآن؟... حتما سيقودونني إلى العاصمة هناك، ويحاكمونني على خيانتي ويتكفّلون بكل شيء، حتى الدفاع عنّي والكلام بلساني، رأيتُ من ثقب الشاحنة الرجل الغريب سي العربي داخل الثكنة العسكرية يمشي بحريّةٍ مقهقهًا، لقد باع وطنه وأهله ولم يكترث لشيء، كان همُّه فقط إرضاء هؤلاء الحمقى.

بدأت الشاحنة تبتعدُ عن المدينة وانسلّت كل ذكرياتي الخيالية معها، لتملأ فراغًا من ذلك الزحام البشري الذي يحيط بي، تذكّرت الصخرة الأسيرة والولد إدريس ولينا المسكينة التي لا تعرفُ أين أنا الآن، حتمًا ستعرف ذلك عندما أُعدم ويُشاع اسمي في المذياع والجرائد، هكذا فقط ستعرف أنّي أعيش حياة مُختلفة عن التي تعيشها

هي، وستتذكّر القطعة الأثرية التي عثرتْ عليها ذلك اليوم، ستراها بغرابة حينها.

كم تمنّيتُ أن أُقابل زيان عاشور قبل موته، ومُساعدته فيما يفعل، حتمًا ستكون لذّة مُختلفة التي يعيشها سي العربي مع الفرنسيين، أنا أتكلم بإنسانيّتي وهو انسلّ عن جلده واختار جسدًا لا يُناسب أيَّ إنسان يقدر أن يرى بعينيه نور الشّمس.

وما إن سرنا مسافةً ليست بالطويلة، حتى تعالى الصراخ وسط الجنود:

– الثوار... الثوار، هم قادمون.

تلا ذلك الصراخ إطلاق للرصاص، كان المعتقلون يتناوبون على ذلك الثقب في الشاحنة حتى يروا ما يحدث في الخارج، كان الوقت يمرّ وكلمات الفرنسيين تتساقط وتصمت للأبد، على صيحات كمّ هائل من الثّوار، كانوا يفوقون الألف رجل، فلقد امتلأ الوادي المقارب من الطريق بهم.

فرح من معي وراحوا ينادون بأسمائهم من ذلك الثقب، كانوا يعرفون بعضهم جيّدا، بعد ساعة كاملة فتح الباب الحديدي وأخرجونا منه.

دُهشتُ لذلك المنظر الرائع، مئات من الخيّالة والمشاة وحتى شاحنات عسكرية فرنسيّة بحوزتهم، كان جيشا منظّمًا جدًّا، جمعوا تلك الغنائم الكثيرة من الرشاشات والألغام والبنادق، بما فيها الشاحنتان والسيارة العسكرية، كنتُ هادئًا مصعوقًا من تواجد

هذا الجيش العظيم رغم مقتل زيان عاشور، ثمّ توغّلوا بنا داخل تلك المتاهات الجبلية الوعرة، كنتُ قد رأيتُ بعضا من هؤلاء الرجال في المدينة.

لم أكن أعرف أسماءهم، لكنّهم كانوا يرمونني بابتسامة مريحة نوعا ما.

أخيرا وصلنا لساحة واسعة جدا خلف الجبل، تفاجأتُ بتلك المدينة المتنقّلة، مئات من الخيام والخيل والجنود الواقفون هناك بمحاذاة الأشجار الكثيفة، كلهم انزاحوا هنا وتركوا المدينة للفرنسيين، وما إن وصلنا هناك حتى قادوني لإحدى الخيام كانتْ خيمة كبيرة يُستجوبُ فيها المُعتقلون.

جلستُ هادئا، لم أكن أصدّق تواجدي هنا بعدما اعتقدتُ أنّي سأُقتل هناك بتهمة الخيانة والتمرد، خفَّ ضغطي قليلا ولم يختف كاملا، لأنّي لم أكن أعرف هؤلاء الرجال ولن يصدقني أحد، لكنّي سرعان ما تذكّرتُ كرامات تلك الصخرة الخيالية وروحها العالقة في جسدي ازددتُ صلابة، ودون صراخ قال لي أحدهم:

– لباسُك يدلُّ على أنّك لستَ فرنسيا، لم اعتقلوك ؟

– أنا اخترتُ على أن أعيش حياة أمّي وحياة المظلومين هنا، لذا هم يقودونني إلى العاصمة لإعدامي.

– لما لا ترجع عن خيانتك وسترتاح من ملاحقتهم لك، صديقتُك ذهبتْ للمخفر باحثة عنك، أظنهم سيُلحقون بها الأذى إذا لم تَعد لرشدك.

– إذن أنت تعرف من أكون؟

– الكل هنا يعرف أنك من أردتَ مساعدة القائد زيان عاشور في المعركة، وقد طلبَ منّا أن نحضرك إلى هنا قبل استشهاده، لكننا فشلنا في ذلك.

خرج الرجل مُتأثّرا بذكرى قائده وتركني هناك طليقًا، شعرتُ بالراحة أخيرا حينما عرفتُ أنهم لا يُريدون بي شرا، تجولُت في الخارج حُرّا بين الناس، لم يتعرض لي أحد بكلمة واحدة وكأن الكل هنا يسير بتفكير مُشابه، كانوا موحّدين في كل شيء في لباسهم الأزرق العسكري ونظراتهم المُسالمة.

وأنا أتجوّل هناك التقيتُ رجلا كنت أعرفه جيدا، كان بشير صاحب الكرامات واقفا يلقّنُ تعاليم وأوامر لرجال مُحيطين به، تكلّم حينها بثقة منقطعة النظير وكان الواقفون معه يستمعون بحذر شديد واحترام، تبيّن لي بعد ذلك أنه أحد القادة هنا.

في بادئ الأمر خفتُ أن أتكلّم معه فلقد ذهب عنه كل مُزاحه وثرثرته التي عُرف بها، كان رجلا مختلفا تماما عن السابق، لكني كنتُ مخطئا في ذلك فما إن تجاوزتُه بخطوات حتى سمعته ينادي:

– أيها الجندي تعال إلى هنا.

أشرتُ إلى نفسي مُتسائلا، كنتُ غير متأكّد من هذا اللقب الذي ناداني به «أيّها الجندي».

– هل تقصدني أنا؟

– نعم أنتُ ومن غيرك يقف هناك، منذ اليوم أنتُ جندي تأتمر بأمري، لم أنسَ أنّك قلتَ لي ذات مرة في المقهى، أنّك تريد مساعدتنا.

لم أصدّق عرضه ذلك، غمرتني فرحة عارمة وازددتُ إعجابا بهؤلاء الرجال الذين منحوني ثقتهم ولم يُعاملوني معاملة غريبة كما انتظرت، حينها تقدّمتُ منه مبتسما:

– لكني سأخيّب ظنّك لأنّي لم أحمل سلاحا في حياتي.

– لا تهتم، أنا أحُضّر لك أمرًا يُناسبك تماما، سأخبرُك به فيما بعد.

سكنتُ أخيرًا في مدينة تستطيع أن تتحمّل هواجسي ولا تتعارض مع إنسانيتي عشتُ حياتهم القاسية تلك.

برد شديد ورياح عاصفة، ونقص في الأكل وانعدام للأدوية، لكنهم كانوا لا يمرضون أبدا ولا يشتكون من شيء، عزيمتهم ويقينهم فيما يفعلون يجعلهم كذلك.

مرّت خمسة ليال وأنا معهم،أشاركهم كل شيء، كنتُ أجلس رفقة بشير، الذي حدّثني بأمر لم أعرفه إلا حينما فاجأني به ذات ليلة، قائلا لي:

– أنتَ الوحيد الذي رأيتُ بعينيك ما فعله أولئك الجبناء بصديقي.

– عن أي شيء تتحدث؟، لم أفهم ما قصدتَه.

– أعرف أنّك ستُدهش من هذه الصدفة الغريبة

– أخبرني أرجوك، ما عنيتَ بكلامك هذا.

– لقد قصصتَ عليَّ مرة عندما كنّا ذلك اليوم في المقهى، وقلت أنّك تُجالس صخرة خياليّة وأنّك ترى صورا وهواجس وأنتَ بجانبها، من حينها تأكدتُّ أنّك إنسان لا تعرف الخداع ولا الكذب.

– ولكن كيف ذلك، لمَ تصدّقُ وساوس أثرثر بها فقط؟

– لا يا صديقي لم تكن كذلك، كنتُ أنا ذلك الولد بشير الذي كان يلعبُ مع صديقه الحواس، مصادفة غريبة جعلتني أقتصُّ أخبارك منذ حكيتَ لي ذلك، لقد أصبحتَ صاحب كرامة، لقد وثقتُ فيك من لحظتها.

– عن أي كرامة تتحدّث، كل ما في الأمر أنّي كنتُ مشتّت الذهن تلك الليلة، فرأيتُ ما رأيت.

– قتلوا صديقي الحوّاس وهم يضحكون بصوت عال، لم نفعل لهم شيئا، فقط كنا نلعب فوق السور، لقد اشتقتُ إليه كثيرا، فررتُ حينها باكيا بشدة إلى الصحراء بعدها وجدني جنود زيان عاشور وأخذوني معهم للجبل بعدما أخبرتهم بما حدث للحواس، عشتُ كل تلك السنين هنا بعيدا عن المدينة وأهلها.

تعلّمتُ على يد زيان عاشور كل شيء، استخدام السلاح وفنون المعارك، لقد كان أبا حنونا لي، لقد عوّضني فقدان عائلتي وصديقي، لقد أقسمتُ حينها أن أقتل ذلك الجندي الطويل راموس الذي قتل الحواس لإضحاك أصدقائه، ولقد كنتُ أجلس في المقهى كي أجمع المعلومات من الفرنسيّين حتى سمعتُ مرة أنّهم سيقومون بحملة تفتيشية على بعض الخيام البعيدة عن المدينة.

تبعتُهم هناك وأخبرتُ زيان بذلك، فقطعتُ لهم الطريق رفقة مجموعة بتعداد مائة رجل، وباغتنَاهم وتداولنا إطلاق الرصاص، لكنّي فوجئتُ بذلك الفرنسي الطويل راموس كان معهم، ربما لم يتذكّرني لكنّي لم أنسه للحظة واحدة، زدتُ إصرارا على النّصر حينها.

استشهد منا الكثير لكنّي قتلتُه فانطفأتْ تلك الجمرة التي كانتْ تحرقني، لكنّ النار لم تخمد أبدا في داخلي، لن تنطفئ أبدا حتى يرحل آخر فرنسي من أرضنا.

– ولماذا ادعيتَ أنّك سي الحواس عندما أقاموا علينا ذلك الحصار المشؤوم؟

– لقد كنتُ جارا لتلك الأم الأرملة، حينها رأيتُها تتوسّل للعسكر أن تخرج من المنزل:

«أرجوكم أولادي الصغار يحتاجون الأكل، هم يُشارفون على الهلاك».

بكيتُ حينها بشدّة وأنّبتُ نفسي كثيرا، لم أُطق رؤيتها تتوسُّل لهم، لقد كانوا يجبرونها على الموت البطيء دون أن يكترثوا لها، ووقتَها خرجتُ مدّعيا حتىّ أُنقذ أولئك المساكين، كما أنّني ساعدتُ سي الحواس على الخروج من المدينة، لكن الله أنقذني منهم وأخرجني من الحبس بسبب مرض تلك الفتاة الصغيرة، ولقد صادفتُ ذلك المارشال الذي أطلق سراحي في المعركة التي قُتل فيها زيان ولم ألحق به الأذى، بل تركته يرحل ردًّا لصنيعه معي.

صباح الغد قادني القائد بشير كما ينادونه إلى منطقة عالية من الجبل كثيفة بالأشجار الطويلة، كان يقول لي أثناء سيرنا أنني سأعمل مع

مجموعة سريّة جدا هم رجال الخفاء الذي لا يعرفهم أحد، حتّى الجنود معنا لا يعرفونهم ولا يعرفون لهم طريقا، لقد درّبهم زيان والقائد عبد الحفيظ بوصوف[1]، سألته حينها عن كنه هذا العمل لكنّه كان يُؤجّل ذلك حتى الوصول هناك، اتجهنا جنوبا في تلك السلسلة الطويلة مبتعدين كثيرا.

أخيرا وصلنا لذلك المكان مع غروب الشمس، كانت تلك الحمرة الغامقة المعانقة للسفح الجبلي تطمئنني، وتزيد من فضولي حيال هذا العمل، لفتَت انتباهي تلك الأجهزة المعلقة في أعالي الأشجار، وقفتُ متسمّرا حيال ذلك قبل أن أرى أولئك الرجال الجالسين على شكل حلقة، الذين وقفوا حالما رأونا واستقبلونا بحفاوة.

كانوا يشيرون لبشير بأعينهم لي لكنه قاطع ذلك قائلا:

– هذا الجندي، صديقكم الجديد في العمل، من الآن يجب أن تشرحوا له كل شيء عن عملكم، وأن تعتبروه واحدًا منكم.

ثم التفت إلي قائلا:

– هؤلاء الفئة من الجنود هم المكلّفون بجهاز الإشارة، يتم ربط الجهاز في شجرة عالية، ويبدأ الجنود بتدوير المولدات اليدوية، من أجل بعث رسائل خارج الجزائر هذه الأجهزة أمريكية الصنع اشتراها القائد عبد الحفيظ بوصوف بنفسه، استعمالها يعتمد على قوّة وصبر، فعملية الإرسال تعتمد على جهد كبير، وتدوير الرسالة لوقت طويل،

1– عبد الحفيظ بوصوف: المدعو «سي مبروك «ولد في 17أغسطس 1926 في ولاية ميلة، سياسي جزائري ومؤسس المخابرات الجزائرية.

وكلما زادت عملية التدوير ثقلتْ يد المقبض، لذا فهم يتداولون على هذه الآلة، لقد تكوّنتْ هذه المجموعة منذ أشهر فقط، ونحن نقوم هنا بإرسال الرسائل لمدينة وجدة المغربية.

وحالما انتهى من كلامه، قدم أحدهم من الخلف ووضع يده على كتفي قائلا:

– من اليوم فصاعدًا أنتَ بطل جهاز الإشارة GRC09، لا تقلقْ سنساعدك على أن تكون كذلك.

كلماته زادت من إرادتي في فعل ذلك، شعرتُ أنّي وجدتُ عالمًا آخر يستطيع أن يدافع عن كل البشر دون صراعات ولا نزاعات، عالم لا يكون فيه قتل ولا أسلحة ولا طائرات، فقط رسائل قصيرة ستُسافر كل ليلة لتبحث عن الإنسانية المفقودة ستقطع الجبال والأنهار والمداشر، لتنبض بتلك الإشارات الصوتية، سنُسمع كل العالم صيحات النساء على قتلاهم، وبكاء الصغار على فقدان طفولتهم، سنسمع صديقي أوكتافيو وعمتي كلارا ندائي وأقول لهم أن تلك الجرائد والمجلات كاذبة.

سأقول لهم أن فرنسا كانت تُطعمُنا من ثروات الجزائريين، سأقول لهم أنّ فرنسا سلبتْ حريّتهم وقتلتْ أولادهم، ومازالتْ تفعل حتى الآن، هم ليسوا كما يقولون لكم بربر ومتخلّفون، هم يريدون أن يكونوا أحرارا فقط، وأن يمارسوا حياتهم بشكل أفضل.

وليلتَها ودّعتُ بشير قبل مغادرته وشكرته على كل ما فعله من أجلي، أحسستُ أنّي لن أراه مُجددا عندما عانقني بشدة، وهمس في أذني قائلا:

– تذكّر أن الأوفياء لن يموتوا أبدا.

مرّت الأيّام وبدأتُ أحترف هذا العمل، كنّا ننتقل باستمرار بين الجبال والكهوف بعيدا عن كل البشر كنا نُكلّم ذلك الفراغ الواسع الذي كنتُ ألاحظه عندما أقف في قمّة ما من الجبل.

نسيتُ كل الماضي وذكرياتي، فقد أحسستُ بالراحة حينها رغم الطبيعة القاسية والمرتفعات الباردة جدًّا ليلًا والعمل الشاق، كنّا نتداول على تدوير الجهاز ليلا كاملا وأيدينا متجمّدة من البرد، وهؤلاء الرجال الصادقون أحببتهم كثيرا وألفتُ جلساتهم وحديثهم، كان قد أخبرنا يوسف صديقنا الأكبر سنّا في تلك الليلة المتجمّدة عن سر تسمية المنطقة التي حططنا فيها الرحال بالويصال.

قال حينها:

– قبل دخول فرنسا إلى منطقتنا، كان يعيش خادم زنجي لقبيلة الأرباع يدعى «لوي»، كان ضخما وقويا، يقطع سبيل المسافرين والقوافل، كان متجبرا يخافه الجميع، ولا يتجرأ أحد على عبور هذه الأرض، كان يصول ويجول فيها دون أن يُوقفه أحد، إلى أن قُضي عليه من طرف مجموعة فرسان أولاد نايل، وبقيتْ ذكراه مرتبطة باسم هذه الأرض.

كان الكلُّ ينصتُ لقصصه الكثيرة التي كانتْ تُنسينا مللنا وعدم صبرنا في الانتظار، خاصّة وأنّنا كنا ننتظر مبعوثي الجبهة ليُبلغونا أهم التطورات، لإرسالها للخارج، ولمّا طال الأمد وانقطعتْ الأخبار، وبدأتْ المؤونة تنفد اتفقنا أن يُقسّم كل واحد حصَّته من الأكل على يومين كاملين خوفا من أن تتأخّر الإعانات.

وفي تلك الأمسية رأيتُ صديقنا الجيلاني يمسك بطنه ويُخرج سعالا شديدا ممزوجا بقطرات الدماء، فأسرعتُ وأخبرتهم بذلك، فاجتمعَ الكل إليه والتفُّوا حوله، حينها قال يوسف:

– ما بك يا الجيلاني، ما الذي حدث لك؟

– لا أعرف، صدري يُؤلمني ورعشة من البرد تختلجني.

التفتُ إلى يوسف قائلا:

– يجب أن نُرجعه إلى المدينة، هذه الجبال باردة جدا، ومؤونتنا نفدتْ.

قاطعني محمد، أصغرنا سنا بصوت خافت:

– لا نستطيع أن نتحرك به عائدين، فالجبهة انقطعتْ عن مراسلتنا، فربما قد حدث أمر جلل.

–ولكن أنبقى مكتوفي الأيدي وصديقنا يموت ببطء؟

كان الكلُّ خائفين على الجيلاني، وحذرين من أن يُخاطروا بفعل شيء قد يُعرّض الجبهة للخطر، لكن يوسف قاطع أفكارهم المبعثرة قائلا:

– الليلة سنعود به أنا وجون إلى مكان الجبهة، وستمكثونَ أنتم هنا في هذه المنطقة هذا قراري هل أنتم مُوافقون على ذلك؟

حينها صمتَ الكل وسط حزن شديد، ومخاوف من أن يكون قد حدث أمر للجبهة لا يعرفونه، وعندما حلّ الليل قدمَ الكل لوداعنا، تقدّم محمد من الجيلاني وأعطاه صرّة من الأكل ومعطفه الصّوفي، قائلا:

– لقد اقتسمتُ معك مؤونتي، أنتَ تحتاجها أكثر مني، سأنتظر عودتك سالما.

ذرف الكل دموعا خفيّةً، وعانقونا بشدة، ثم أنهى يوسف حزنهم بكلمة لطالما كرّرها، كان سحرها يجعل الكُل مُبتسمين، قالها بهدوء عجيب:

– إنَّ الله لن يُضيّعنا.

سرنا ليلتها عائدين، كُنّا ننزل شمالا من تلك الصخور العالية وفارين من ذلك الظلام الحالك الذي يختبئ تحت الأشجار.

لبس الجيلاني المعطف الصوفي وأكل جيّدا فتحسّنَ قليلا عمّا كان عليه، لكن تلك الرعشة الجامحة لم تُغادره أبدا أثناء سيرنا، كُنّا نختبئ أحيانا من الطائرات الكثيرة المُحلّقة، وكنتُ صلبا جدّا وكأنّ روح تلك الصخرة في داخلي، فقد كانتْ تزيد من تحمُّلي وطاقتي، لقد حملت الجيلاني على ظهري لمَّا سقط مُنهكا من التّعب لمسافة طويلة، حتى يوسف وقف مذهولا لصلابتي وتحمّلي، كان يقول لي والتعب يملأ ملامحه:

– عرفتُ لماذا كان القائد بشير يوصي عليك بشدة.

– لا عليك، مازالتْ لديَّ طاقة على أن أحمله مسافة أخرى.

مشينا مسافة طويلة، ثمّ اضطررنا أن نرتاح قليلا بعدما سقطنا الثلاثة مرهقين من المسير.

هدأ قليلا سعال الجيلاني عندما نزلنا من تلك القمة الجبلية العالية، كنّا قريبين من أن نصل لمكان الجيش حيث مقر الجبهة هناك، وحينما

استيقظنا من قيلولتنا القصيرة أنا ويوسف كانت أنفاس الجيلاني قد انقطعتْ، وملامحه قد أصبحتْ ملائكية، استُشهد ومات وهو يُقاوم المرض، بكينا بشدة عليه ودفناه بالقرب من تلك الصخور الحمراء، تكلّمتُ مع يوسف بضرورة الذهاب للمدينة الجبلية وإحضار المؤونة، قال حينها:

– لقد حذّرتني الجبهة بأن لا أعود إليهم مهما حدث، لن أُغامر أكثر من هذا.

– ولكن ماذا سنفعل، هل سننتظر الموت ونسقط واحدا تلو الآخر أمام تلك الأجهزة سنخيّب ظنّ الملايين الذين ينتظرون أن نُرسل صرخاتهم.

– حسنا سنُراقب المكان من بعيد، وننظر ماذا سيحدث.

اقتربنا من المكان الذي نقصده وتسلقنا تلك الأشجار العالية، حينها فوجئنا بالمكان خال، لم نرى الخيام والخيول والجنود، لا وجود لأحد.. كلّهم رحلوا، وللحظة لمحنا شاحنة الفرنسيين المختبئة هناك، كانوا يُراقبون المكان ويطوقُّونه، حينها نزلنا بحذرٍ شديدٍ وحاولنا التسلّسل ببطء كي لا يرونا، لكن الكلاب اللّعينة نبحتْ في اتجاهنا بشدة، جرينا هاربين من صراخهم المهول وإطلاق رصاصهم الكثيف. ترجّل العشرات للإمساك بنا ونحن نتوغّل في تلك المتاهات الجبلية، كان يوسف قد أُصيب في رجله، فأسندتُه على كتفي وحاولنا الهروب، لكنّنا فُوجئنا بإطلاق النّار من الأمام، وبعدما ظننَّا أنّنا قد وقعْنَا في أيديهم، توقفنا فيها للحظة لمّاَ سمعنا القائد بشير يُنادي باسمينا:

– هيا تعاليا من هنا، أسرعا يكادون يلحقون بكما.

احتمينا خلف الصخرة العظيمة، فأخيرا وجدنا القائد بشير رفقة مجموعته راحوا يتبادلون مع الفرنسيين إطلاق النار وقتا طويلا، ثم اضطررنا للانسحاب لكثرة عددهم، وبعد أن أخذنا بشير وأصدقائه بعيدًا عن المكان، أخبرنا حينها قائلا:

– لقد عرفنا مُؤخّرًا من عيونٍ لنا في ثكنتهم العسكرية، أنهم قد عرفوا مكاننا وينوون مباغتتنا، رحلنا لحظتها وحوّلْنَا مدينتنا لمكان آمن، وهاهم الآن يُطوقون كل الناحية، ينتظرون كلّ زائر جديد لهذا المكان حتى يُلقوا عليه القبض، كما فعلوا معكم قبل لحظات، لكن لحسن الحظ شاهدكم عيوننا وأخبروني بقدومكم.

– آسف يا سيدي، لقد نفدتْ مؤونتنا وأطلتم مُراسلتنا فخفنَا أن يكونَ حدث شيء ما.

– لكني حذّرتُك يا يوسف قبل ذلك، بأن لا تتصرَّفوا دون رسائلنا.

حينها خفض يوسف رأسه بحزن قائلا:

– لقد حدث أمر آخر يا سيدي.

– ماذا حدث غير الذي فعلتموه؟

– لقد استُشهد الجيلاني بعدما أصابه مرض شديد جرّاء البرد الشديد ونقص المؤونة، حاولنا أن نُحضره إلى هنا، لكنه فارق الحياة قرب تلك الصخور الحمراء، لقد دفناه هناك.

حينها جلس بشير بهدوء وتغيّرت ملامح وجهه، وطأطأ رأسه مخفيا دموعا:

– كم أحببتُ ذلك الرجل، لقد رحل وتركنا دون أن نودّعه، كان بطلا ورجلا غيورًا على وطنه، أرجوكم قوموا للصلاة عليه، صلاة الغائب.

كان متأثّرًا جدًّا، انعزل لخيمته ولم نره إلا بعد فترة طويلة، بعدها حملنا الكثير من المؤن والأدوية على الخيول، كما أعطونا تلك الرسائل التي سنرسلها، وعُدنا بعد يوم كامل من السير رفقة أصدقائنا الذين تأثروا كثيرا بموت الجيلاني. أصروا بشدة حينها على المواصلة بإرادة منقطعة النظير، رأيت في عيونهم بأسا وشدة.

ركّبْنا جهاز «الترونسميسون» GRC09 في أعلى الشجرة، لننقل معلومات موقع جيش التحرير والمعارك التي خاضها ضد الفرنسيين، لمدينة وجده المغربية، أين يتواجد عبد الحفيظ بوصوف.

وبعد منتصف الليل كنّا نتداول على تدوير المقبض ساعات طويلة ونحن مستيقظين نحاول إرسالها، كنا نُخفق أحيانا في ذلك، فكنّا نستغرق وقتا طويلا حتى إنجاح العمليّة.

كنا سعداء بعملنا هذا لاسيما ونحن نُغيّر مجرى الثورة من محليّتها إلى الخارج حيث هناك المُفاوضات المستمرة حول مصير الجزائريين، لم يتمكّن الفرنسيون ولو لمرة واحدة من كشف أمرنا، كنّا ننتقل خلال رحلاتنا القصيرة تلك كالأشباح الطائرة، ونستيقظ حينما ينام كل البشر، على تلك النّسائم الروحانية نُدافع فيها عن الإنسانية.

رسَالة منْ جُون ميشَال إلى صَديقي أُولْتَافيولا

من أجل الولد الحوّاس الذي قُتل غدرا، وأمي مريم التي سمعتْ نداء قلبها بصدق فتزوجّتْ أبي فقتلوها، وزيان عاشور الرجل الذي أحببتُه دون أن أعرفه، من أجل استغاثات أولئك الرجال الذين دُفنوا أحياء، والصخرة التي أسروها بالأغلال وأطلقوا عليها النار، ومن أجل الولد إدريس الذي بكى دموعا بيضاء عفوية على وفاة زيان عاشور، من أجل كرامة الفرنسيين الأحرار كتبتُ أنا جون مذكّراتي هذه، وأنا جندي الإشارة الذي قاتل ضد وطنه فرنسا لسنوات، جون الذي قاتل ضد الظّلم والعنصرية دون أن يُراعي أي انتماء.

رجَاءٌ أَخيرْ:

أنا متأكد أنَّك ستقرأُ رسالتي هذه بعد أن ننتصر، بعد أن نعود أدراجنا ونعترف بكل جرائمنا، باسم الصّداقة التي جمعتْنا أطلبُ منك أن تنشرَ مذكّراتي هذه في الجرائد حتى يتسنى لكل الفرنسيين أن يطّلعوا عليها.

الفهرس

الإهداء.....7

الفَصْل الأوَّل.....9

متحف اللُّوفر.....45

الفَصْل الثَّاني.....98

الحصَار.....149

منْ مُذكّرَات جُون.....163

رسَالة منْ جُون ميشَال إلى صَديقي أُوكْتَافيوا.....188